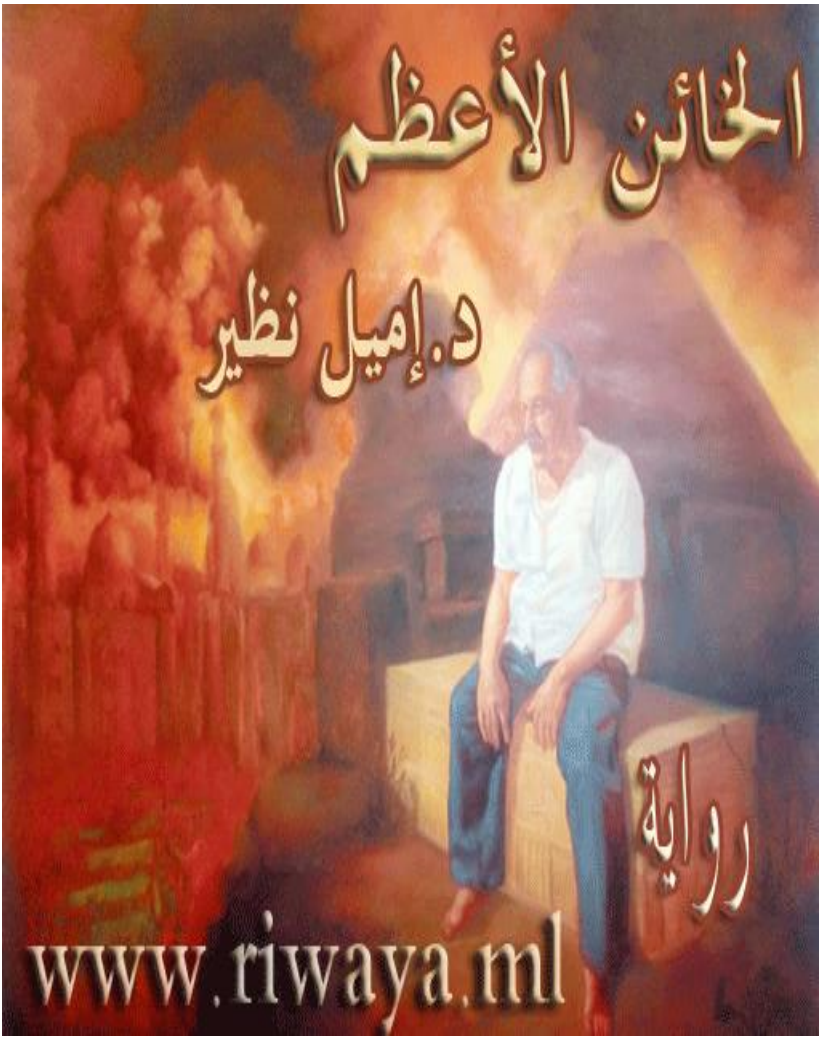
الخائن الأعظم
د.إميل نظير
رواية
www.riwaya.ml

الخائن الأعظم

(رواية)

من تأليف

د. إميل نظير

الخائن الأعظم

- كيف صار بهاء شكري الخائن الأعظم في تاريخ مصر؟ وكيف استحق ذلك اللقب؟
- ماذا يمكن أن يجبر المخابرات المصرية على الإعتذار لخائن؟
- لماذا تنقلب الدنيا رأسا على عقب لمجرد مقتل خائن؟
- لماذا يأمر الرئيس بلف جسد خائن بعلم مصر وتشييع جثمانه في جنازة عسكرية مهيبة؟
- لماذا أصدر الرئيس قرارا جمهوريا بالحفاظ على حياة لص مطلوب للعدالة مهما كان الثمن؟
- ما سر تلك المادة التي ابتكرها الدكتور الربيعي وأعلن عنها في مؤتمره الصحفي؟
- هل يمكن لتلك المادة أن تكون حلا لكافة مشاكل مصر الإقتصادية؟
- لماذا يطالب أحدهم النائب العام بمصادرة كافة الصحف في مصر؟
- ماذا يمكن أن يجبر أستاذا جامعيا على تقبيل يدي معيد لديه – كان قد سبق وحاول قتله مرتين – راجيا إياه بأن يقتله مجددا؟

إهداء

إلى السيد المحترم صالح عبد القادر المنصور الذي أعزه وأقدره وأجله كثيرا .. إلى هذا الشخص الرائع الذي أعتبره بمثابة والدي وأدين له بفضل كبير فقد تعلمت منه الإلتزام والجدية في العمل والقدرة على تحمل المسئولية وأعتبره دوما قدوة ومثلا أعلى أهدي روايتي تلك

د. اميل نظير

www.riwaya.ml

انطلقت إحدى سيارات الإسعاف تنهب الأرض نهبا بينما تصرخ بأعلى صوت لبوقها تنوء بحملها وتبكي من بداخلها .. راحت السيارات تفسح لها الطريق بينما تتجاوزهم في سرعة لا مبالية بإشارات مرور أو إرشادات الطريق .. كان عليها أن تصل بمصابها إلى بر الأمان قبل أن أن يفوت الأوان .. كانت سيارة مجهزة وبداخلها فريق كامل من الأطباء يعملون في سرعة ومهارة على إسعاف المصاب الذي ينزف في غزارة وما أن توقفت السيارة أمام المستشفى حتى أسرع فريق آخر كان في انتظارها من الأطباء نحوها وتعاونوا مع زملائهم في إنزال المحفة التي تحمل المصاب وما أن وضعوه على فراش متحرك حتى راحوا يتسابقون في دفعه أمامهم إلى داخل المستشفى ثم واصلوا ركضهم عبر ممرات المستشفى حتى وصلوا به إلى حجرة العمليات ودفعوا به إلى داخلها حيث كانت مجموعة أخرى في انتظاره وقد تعقموا واستعدوا لإجراء جراحة عاجلة لإخراج رصاصات ثلاث كانت قد استقرت في جسده .. وهناك في إحدى ممرات المستشفى كان أحد الأطباء يهمس في أذن رفيقه قائلا:

– من هذا بالضبط؟

– يبدو أنه شخصية هامة للغاية

– ولكن مظهره ..

– كثيرا ما تكون المظاهر خداعة يا صديقي

– ولكن هناك إشاعة تتردد بأنه مجرم خطير

– هل جننت؟

– لماذا؟

– حالة الطوارئ القصوى معلنة في المستشفى من أجله

– هذا ما يحيرني بالضبط

– لقد سمعت أن رئيس الجمهورية اتصل بمدير المستشفى من أجله

– إشاعات .. مجرد إشاعات

– ولكنني تأكدت بنفسي

– هراء

– ألا يؤكد لك ما يحدث في المستشفى ذلك؟

– بل أنه يؤكد العكس

– العكس؟

– الرجل مصاب برصاص الشرطة

– هل أنت واثق مما تقول؟

– تمام الثقة

– لماذا كل هذا الإصرار للإبقاء على حياته إذن؟

– إنهم هكذا دائما

– ماذا تقصد؟

– إنهم يطلبون منا بذل قصارى جهدنا لإنقاذ المجرمين ليعدموهم بأنفسهم

– هل تعني أنهم سوف ..؟

وهز رأسه نفيا بينما يستطرد :

– لا .. مستحيل

– هل تراهنني؟

– أراهنك يا صديقي .. أراهنك بحياتي

* * *

خطا الرائد كمال فؤاد خطوات أقرب إلى العدو في إحدى ممرات المستشفى وتوقف أمام موظفة الاستعلامات وسألها في لهفة:

– هل وصلكم مصاب يدعى بهاء شكري؟

– المصاب بثلاث رصاصات؟

– بالضبط

– إنه ما يزال في حجرة العمليات

سألها في لهفة:

– وهل إصابته خطيرة؟

– سل الطبيب

قال في ارتباك:

– أعني هل سيعيش؟

– صدقني .. إنني لا أعلم عنه شيئا

– أين حجرة العمليات من فضلك؟

– الطابق الثالث إلى اليمين

أسرع نحو المصعد وضغط زر استدعائه ولكنه ما لبث أن تململ ولم ينتظر حتى يصل المصعد إليه وأسرع يرتقي السلم عدوا حتى وصل إلى الطابق الثالث ثم توجه نحو حجرة العمليات وما أن اقترب منها حتى نظر عبر زجاجها المعتم محاولا اختراقه بنظره إلا أنه لم يستطع .. تلفت حوله فلم يجد إلا شخصا واحدا يتكئ على الحائط وقد ارتسم الحزن على وجهه تترقرق دموعه في عينيه فتعكس كآبة الدنيا كلها .. بدا عليه أنه غارق في أحزانه تماما حتى أنه لم يكن يشعر بما حوله .. اقترب الرائد كمال منه وتنحنح ليلفت

انتباهه إلا أنه لم يتحرك قيد أنملة ولا بدا عليه أنه شعر به على الإطلاق .. ربت على إحدى كتفيه برفق فانتبه الرجل في ذعر وكأنما يستيقظ من نوم عميق ..

– آسف للإزعاج

– لا عليك

أشار بطرف عينيه إلى حجرة العمليات بينما يقول:

– أحالته مطمئنة؟

– بل في غاية الخطورة

– أأنت من أقاربه؟

– لقد رأيته اليوم للمرة الأولى في حياتي

– لماذا كل هذا الحزن إذن؟

– إنها قصة طويلة

– ألست أنت من اخترق صفوف الشرطة وتحدث إلى الرجل بعد أن أصيب؟

– نعم .. أنا

– وكنت تصرخ طالبا الإسعاف

– بالضبط

– من أنت بالضبط؟

– المقدم شريف زيدان من المخابرات العامة وموفد من رئاسة الجمهورية

– رئاسة الجمهورية؟

– نعم

– لقد سلمتني ذاك القرار الجمهوري بالحفاظ على حياته ولكن بعد فوات الأوان .. ليتك ما وصلت متأخرا .. ولكن ما شأن الرئاسة بمجرم خطير كهذا؟

– ذاك يندرج تحت بند " سري للغاية " ولا يمكنني الإفصاح عنه

– لماذا كل هذا الغموض يا سيادة المقدم؟

– إنها لدواعي أمنية وأظنك خير من يقدر ذلك

– ولكنني أريد أن أعرف شيئا واحدا حتى يرتاح ضميري

– ماذا تريد أن تعرف؟

– هل ظلمته حين أطلقت عليه الرصاص؟

– لقد كنت تؤدي واجبك

– إذن فماذا يحدث بالضبط؟

– ماذا يحدث؟

– لماذا تنقلب الدنيا من أجل مجرم ولص مطلوب للعدالة؟

– قلت لك إنها قصة طويلة قد أخبرك بها يوما

– أرجوك .. ضميري يعذبني

– فليرتح ضميرك ولتهدأ بالا

واذدرد لعابه ثم استطرد في حزن عميق:

– انك لم تكن تعلم من هو بهاء شكري

وضم إحدى قبضتيه وضرب بها الحائط بينما يستطرد :

– ليتك كنت تعلم .. ليتك كنت تعلم يا رجل

* * *

ضم رئيس الجمهورية إحدى قبضتيه وضرب بها سطح مكتبه في غضب بينما يهتف في هستيريا قائلا:

– أغبياء

– اهدأ يا سيادة الرئيس

– هل تأكدتم؟

– للأسف يا سيادة الرئيس .. لقد تأكدنا من الخبر تماما

ألقى الرئيس بنفسه على مقعده وترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول في أسى:

– يا الهي! .. كلما أردت أن أخطو بهذا البلد نحو مستقبل مشرق لا أتعثر سوى بالأغبياء

وجفف دموعه بمنديله بينما يصرخ قائلا:

– أغبياء .. لقد أصدرت لهم قرارا جمهوريا و ..

قاطعه مدير المخابرات قائلا في حزن:

– لقد سبق السيف العذل يا سيادة الرئيس

ضرب الرئيس سطح مكتبه بقبضته ثانية بينما يصرخ قائلا:

– لم يكن عليهم أن يفعلوا ذلك مهما كانت الأسباب

– لقد كانوا يؤدون واجبهم يا سيادة الرئيس

هتف الرئيس في غضب:

– واجبهم أن يقتلوا البشر؟ .. لكم أود أن أشنقهم جميعا!

ثم استطرد قائلا في صرامة:

– ما حدث لا يمكن أن يمر دون عقاب .. من الذي أطلق النار عليه؟

– إنه الرائد كمال فؤاد يا سيادة الرئيس

– فليجرد من رتبته العسكرية ويحال إلى التقاعد على الفور ويحرم من جميع مستحقاته

– ولكن ..

– ليس من لكن .. من كان يقود تلك العملية الغبية؟

– إنه العقيد الشيمي يا سيادة الرئيس

– فليجرد من رتبته أيضا وليعامل بالمثل .. إنه عار على الشرطة

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

– وكل من شارك في تلك العملية الغبية فليجرد من رتبته أيضا ويعامل بالمثل .. إنهم عار على الشرطة .. لكم أود قتلهم جميعا

وترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول:

– وكيف حاله الآن؟

– في غاية الخطورة يا سيادة الرئيس ولكن الأطباء يبذلون قصارى جهدهم و..

– ليس هذا كافيا .. ليس كافيا بالمرة

– بم تأمر يا سيادة الرئيس؟

– فلننقله إلى لندن للعلاج؟

– لا أظن حالته تسمح بذلك يا سيادة الرئيس

– فلترسلوا إليه إذن فريق طبي على أعلى مستوى

– ولكن ذلك سيحتاج إلى بعض الوقت يا سيادة الرئيس

– بل على الفور

– وكيف يا سيادة الرئيس؟

– فلتستخدموا كافة إمكانات الدولة .. فلتستخدموا الطائرات الحربية لنقل الأطباء إليه وبأقصى سرعة

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

– وأريد تقريرا مفصلا عن حالته على مدار الساعة

وترقرقت دموعه في عينيه بينما يستطرد قائلا:

– لا أريده أن يضيع منا .. لا أريده أن يضيع .. أبدا

* * *

ارتفعت أصوات أبواق مجموعة من سيارات الشرطة والدراجات البخارية وظلت ترتفع وترتفع بينما تقترب من مستشفى الغردقة في سرعة محتضنة بينها سيارة فارهة لشخصية بدا أنها في غاية الأهمية وما أن توقف الموكب أمام باب المستشفى حتى هتف أحد الصحفيين:

– إنه المحافظ

تدافع الصحفيين ومندوبي وكالات الأنباء العالمية ومذيعي ومصوري معظم فضائيات العالم نحو السيارة حتى أن المحافظ وجد صعوبة بالغة في فتح بابها والخروج منها .. أسرع الحرس الخاص بالمحافظ نحو السيارة وراحوا يبعدون الجميع عنها ويفتحون له بابها وما أن هبط منها حتى فوجئ بسيل من الأسئلة تلقى عليه في عشوائية وبلا نظام مما حدا به إلى أن يهتف بهم قائلا في صرامة:

– النظام يا سادة .. النظام أرجوكم

صمت الجميع بينما انبرى أحدهم قائلا:

– سيادة المحافظ .. لماذا الاهتمام بهذا المجرم بالذات؟

قال في حيرة:

– صدقوني .. أنا نفسي لا أعلم شيئا

قال آخر:

– لماذا جئت لزيارته إذن؟

– سيادة الرئيس مهتم به شخصيا لذا فلقد اتصل بي وطلب مني أن أطمئن عليه وأطمئنه

– هل هو أحد أقارب الرئيس؟

– لا أدري .. ربما

قال آخر:

– لماذا تطلقون عليه الرصاص ثم تحاولون الإبقاء على حياته بكل هذا الإصرار؟

– لا تعليق

– أليس هو من حاول قتل الدكتور الربيعي في القضية التي هزت الرأي العام منذ سنوات؟

– ربما

هتف آخر:

– إنه هو .. ولقد حكم عليه بالسجن لخمس سنوات

– صدقوني .. إنني لا أعرف عنه شيئا

– من نسأل إذن؟

– هذا شأنكم

ومضى المحافظ في طريقه نحو المستشفى بينما يوسع رجال الأمن الطريق أمامه .. كان مدير المستشفى ومعه لفيف من الأطباء في استقباله على باب المستشفى .. صافحهم المحافظ ثم سار معهم إلى الداخل ..

– كيف حاله الآن يا دكتور؟

– لقد أخرجنا ثلاث رصاصات من جسده ولكنه لم يتعد مرحلة الخطر بعد

– هل سيتمكن من تجاوز تلك المرحلة في رأيك ؟

– لقد بذلنا كل ما في وسعنا يا سيادة المحافظ ولكن الحياة في يد الخالق يهبها لمن يشاء

أطرق برأسه نحو الأرض في أسى بينما يقول:

– ونعم بالله

– هناك سؤال يحيرني يا سيادة المحافظ

– تفضل

– لماذا أطلقتم عليه الرصاص ما دمتم تريدون الإبقاء على حياته؟

قال في غضب:

– نحن أطلقنا عليه الرصاص؟

قال مدير المستشفى في ارتباك:

– إنني .. إنني أقصد رجال الشرطة

– أهم بالفعل من أطلق عليه الرصاص؟

– ألا تعلم يا سيادة المحافظ؟

– لقد فوجئت بالسؤال ذاته من أحد الصحفيين ولكنني ظننته مخمورا .. هل أنت واثق مما تقول؟

– تمام الثقة يا سيادة المحافظ .. والرصاصات التي أخرجناها من جسده تؤكد ذلك

– يبدو أن في الأمر سر غامض .. غامض للغاية

* * *

هبطت هليوكوبتر عسكرية على سطح مستشفى الغردقة دون أن تتوقف مراوحها مثيرة حولها عاصفة من التراب وانفتح بابها وهبط منها فريق كامل من أبرع الأطباء يتقدمهم وزير الصحة بنفسه وما أن فعلوا حتى عادت الطائرة لتحلق من جديد وتبتعد تاركة إياهم خلفها .. أسرع مدير المستشفى يستقبل الوزير في ترحاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة دبلوماسية هادئة وراح يشد على يده في قوة وإن لم يستطع أن يخفي تلك الحيرة المرتسمة على وجهه

– مرحبا سيادة الوزير .. لقد تشر..

قاطعه الوزير قائلا في اهتمام بالغ:

أين هو؟

اصطحب مدير المستشفى الجميع على عجل إلى حجرة العناية المركزة وما أن اقترب منها حتى أشار نحوها قائلا:

– إنه هاهنا و ..

لم ينتظر فريق الأطباء حتى يكمل كلامه واندفعوا نحو الحجرة وأسرع بعضهم يتفحصون بهاء بينما انهمك الآخرون في تفحص الأجهزة المتصلة بجسده والتأكد من مواضعها وأخذ القراءات عنها .. كانوا يعملون في تناغم مدهش .. كانوا مجموعة تم انتقاؤها في عناية فائقة من أكفأ الأطباء وأكثرهم براعة أرسلهم الرئيس بنفسه بعد أن أوصاهم بالمصاب ورجاهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في علاجه والعناية به ووضع على رأسهم وزير الصحة ليضمن له عناية طبية فائقة على أعلى مستوى .. دلف وزير الصحة إلى الحجرة يصحبه مدير المستشفى بينما يقول:

– ألم تتحسن حالته بعد؟

– أبدا يا معالي الوزير

– أما زال في مرحلة الخطر؟

– أمامه يومان على الأقل

تمتم الوزير في صوت خافت:

– فليلطف الله بنا جميعا

ثم رفع صوته بينما يستطرد قائلا:

– لا يمكنك أن تتصور مدى قلق الرئيس عليه

– أهو أحد أقاربه؟

– لا أظن ذلك

– بطاقته تشير إلى أنه مجرد معيد في كلية العلوم

– معيد؟

– وهناك إشاعات تؤكد أنه قد فصل من الجامعة بعد إدانته في محاولة اغتيال فاشلة فلم كل هذا الاهتمام به من قبل الرئيس ورجال الدولة؟

– لو أجبتك هل ستصدقني؟

– بالطبع يا معالي الوزير .. بالطبع

– العلم عند الله يا دكتور

احتقن وجهه بشدة ثم قال في ارتباك:

– ولكنك مسئول كبير في الدولة ومن المفترض أنك على علم بكل ما يجري

– ليس في هذا الموضوع بالذات .. إنهم يحيطونه بالكثير من الغموض .. إنهم مصرون على جعله تحت درجة هي أقصى درجات السرية والغموض .. أقصاها على الإطلاق

* * *

– هل جننت؟

– أقسم لك أن هذا ما حدث يا دكتور

– إنني لا أصدق حرفا مما تقول

– صدقني يا دكتور .. قوات الأمن تحاصر المستشفى وتفرض عليها طوقا أمنيا رهيبا

– تحاصر المستشفى؟

– ليس هذا فحسب

– ماذا أيضا؟

– إنهم ينتشرون على سطح المستشفى وأسطح المباني المجاورة

– لماذا يفعلون ذلك؟

قال في حيرة:

– لست أدري

قال مدير المستشفى في غضب:

– ولماذا لم تسألهم أيها الغبي؟

قال في ارتباك:

– لقد سألتهم ولكن ما من مجيب

غمغم مدير المستشفى قائلا:

– ماذا يمكن أن يعني ذلك بالضبط؟

– يمكنك أن تتأكد بنفسك يا دكتور

ارتدى مدير المستشفى سترته بينما يقول:

– بالطبع .. لابد وأن أتأكد بنفسي

أشار نحو الباب بينما يقول:

– تفضل يا دكتور

ثم أسرع نحو الباب يفتحه أمامه وما أن خطا مدير المستشفى خارج الحجرة حتى فوجئ بقوات الأمن تصطف على كل جنبات المستشفى واندفع نحوه اثنان من رجال الشرطة دفعاه إلى داخل الحجرة وأعاداه إليها في عنف .. صرخ بهما قائلا:

– ماذا يحدث هنا بالضبط؟

قال أحدهما في صرامة:

– ليس هذا من شأنك

صرخ به قائلا:

– شأن من إذن؟

لم يتلق ردا فتابع في غضب:

– إنني مدير المستشفى والمسئول عن كل كبيرة وصغيرة بها

اقترب منه اللواء فخري عبد الرحمن بينما يقول:

– اهدأ يا دكتور .. اهدأ أرجوك .. إننا نبحث عنك يا رجل

– أهو انقلاب عسكري؟

– إننا آسفون لما يحدث يا دكتور

– إنها مستشفى والمرضى يحتاجون إلى الهدوء و ..

– نعدك ألا يستغرق الأمر كثيرا

– ماذا يحدث بالضبط؟ .. هل قامت الثورة؟

ابتسم اللواء فخري بينما يقول:

– لا تنزعج يا دكتور .. الموضوع أبسط من ذلك بكثير

– لابد وأن أعرف ما يحدث بالضبط .. إنني المدير المسئول و ..

تأبط اللواء فخري ذراع المدير بينما يقول:

– هيا معي إذن

نظر المدير نحوه في جزع وازدرد لعابه بينما يقول:

– هل .. هل ستقبضون علي؟

ابتسم اللواء فخري بينما يقول:

– لا تقلق يا رجل

ثم جذبه ليسير إلى جواره بينما قائلا:

– هيا يا دكتور .. لا وقت لدينا

سار مدير المستشفى إلى جواره بينما يقول في قلق بالغ:

– إلى أين تأخذونني؟

– لابد وأن تكون في شرف استقباله

– من؟

– سيادة الرئيس

فغر مدير المستشفى فاه واتسعت عيناه في دهشة وبدا وكأنه لا يصدق أذنيه ..

– من؟

– سيادة الرئيس .. سيادة الرئيس يا رجل

* * *

اصطف الجنود في ثبات يطوقون سطح المستشفى بأكمله على الرغم من تيار الهواء الرهيب الذي كاد أن يقتلع الجميع من أماكنهم والناتج عن تلك الهليوكوبتر الحربية التي تهبط أمامهم بينما وقف العديد من رجال الأمن ذوي الرتب العليا وفي مقدمتهم وزير الصحة والمحافظ يرقبون الطائرة التي هدأت محركاتها وتوقفت مراوحها عن الدوران ولم تمض لحظات حتى انفتح بابها وهبط منها الحرس الخاص برئيس الجمهورية وما لبث أن هبط الرئيس خلفهم .. أسرع العسكريون يؤدون التحية العسكرية أمامه في قوة وصرامة .. بدا الحزن واضحا جليا على ملامح الرئيس وتجاهل الجميع بينما يتجه إلى وزير الصحة مباشرة وبادره قائلا في لهفة بالغة:

– كيف حاله الآن يا معالي الوزير؟

– ما يزال في مرحلة الخطر يا سيادة الرئيس خاصة وأن إحدى الرصاصات قد اخترقت إحدى رئتيه

ترقرقت الدموع في عيني الرئيس بينما يقول بصوت متهدج:

– فلتبذلوا قصارى جهدكم يا معالي الوزير

– إننا نفعل كل ما في وسعنا يا سيادة الرئيس

– أما زال ليس بالإمكان إرساله إلى لندن؟

– حالته لا تسمح للأسف

– وماذا عن نقله للقاهرة؟

– لا يمكن يا سيادة الرئيس

– حتى لو نقلناه بهليوكوبتر خاصة ومجهزة على أعلى مستوى؟

– ولكن يا سيادة الرئيس ..

قاطعه قائلا في حزم:

– لن أغادر الغردقة ما لم أصطحبه معي وإلا سأظل معه ولو إلى الأبد لابد وأن أطمئن عليه لحظة بلحظة

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

– هل يمكنني إلقاء نظرة عليه؟

– بالطبع يا سيادة الرئيس ولكن لي سؤال بسيط

– سل ما شئت يا رجل

– هل هو .. قريبك أم ..

قاطعه الرئيس قائلا:

– أنني لم أره من قبل

فغر الوزير فاه في دهشة بينما يقول:

– لم تره من قبل؟

– وما العجب في ذلك؟

– عفوا يا سيادة الرئيس .. الجميع يظنون أنه أحد أقاربك و ..

– وما الذي دفعهم إلى الظن بذلك؟

– كل هذا الحزن في عينيك يا سيادة الرئيس و ..

– إنها قصة طويلة يا معالي الوزير

– أتمنى لو أعرفها يا سيادة الرئيس

– في معرفتها خطر على حياته لذا فستظل سرا غامضا إلى الأبد يا رجل

– ولكن الفضول يكاد أن يقتلني و ..

– لا مجال للفضول فيما يتعلق بأمن الدولة يا رجل

قال الوزير في ارتباك واضح:

– طبعا .. طبعا يا سيادة الرئيس

– هيا .. هيا إلى غرفته .. أريد أن أراه وأطمئن عليه

– ألن تسترح قليلا من عناء السفر و ..

قاطعه قائلا في صرامة:

– قلت على الفور .. ألا تفهم؟

احتقن وجه الوزير في شدة إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه وأشار بإحدى راحتيه قائلا:

– تفضل يا سيادة الرئيس .. تفضل

وانطلق مع الرئيس يقوده إلى الحجرة وخلفهم المحافظ ومدير المستشفى وجيش من رجال الشرطة وتوقف الجميع أمام حجرة العناية المركزة بناءا على إشارة من الرئيس الذي دلف إلى الداخل بمفرده وراح يتطلع إلى بهاء الذي كان يهوي في غيبوبة عميقة بينما تحيط به العديد من الأجهزة والمعدات الطبية ولم يستطع الرئيس أن يمنع دموعه التي راحت تسيل على وجنتيه .. وتسيل بينما يتمتم:

– أنقذه يا إلهي ..أنقذه أرجوك

* * *

تحولت مستشفى الغردقة إلى خلية للنحل .. كل شيء يجري على قدم وساق .. راح الجميع يؤدون عملهم في سرعة ودقة ويجهزون مصابا فوق العادة للرحيل إلى القاهرة وبالتحديد إلى مستشفى الشرطة بالقاهرة بينما كانت هليوكوبتر عسكرية مجهزة بأحدث الأجهزة الطبية تهبط إلى جوار أخرى كانت ساكنة ومحاطة بحراسة مشددة على سطح المستشفى وما أن هبطت بسلام وتوقفت محركاتها تماما حتى راح اللواء فخري يحث الخطى نحو حجرة العناية المركزة حيث كان الرئيس يجلس إلى مقعد بجوار فراش بهاء يرقبه في أسى بينما يجلس وزير الصحة إلى مقعد مجاور .. أدى اللواء فخري التحية العسكرية ثم قال:

– كل شيء على ما يرام يا سيادة الرئيس

رفع الرئيس رأسه نحوه بينما يقول في حزن بالغ:

– هل وصلت الطائرة؟

أومأ برأسه إيجابا بينما يقول:

– على التو يا سيادة الرئيس

نهض الرئيس عن مقعده بينما يقول:

– على بركة الله

ثم نظر إلى وزير الصحة يسأله:

– هل أنتم مستعدون؟

– تماما يا سيادة الرئيس

– فلتنجزوا مهمتكم على وجه السرعة إذن

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

وأسرع الوزير يغادر الحجرة ويلقي بتعليماته إلى فريق الأطباء الذين راحوا يعملون في تناغم مدهش لنقل المريض إلى فراش متحرك وراحوا يدفعونه أمامهم في سرعة وحذر وتبعهم الرئيس يكاد يعدو بينما يحيط به حرسه الخاص إحاطة المعصم بالسوار يتبعه وزير الصحة

والمحافظ ومدير المستشفى ورجال الشرطة من ذوي الرتب .. دفع الأطباء الفراش إلى المصعد وتبعهم الرئيس وحرسه الخاص إليه بينما اتجه الباقون نحو السلم يرتقونه في سرعة وما أن وصل الجميع إلى السطح حتى عاونهم الرئيس بنفسه على نقله إلى الهليوكوبتر ثم حاول أن يستقل الهليوكوبتر معه إلا أن حرسه الخاص اعترضوا بشدة وراحوا يشرحون له مخاطر ما يريد وأقنعوه بأن يتبعه بالهليوكوبتر الخاصة برئاسة الجمهورية فوافق على مضض واستقل الهليوكوبتر الأخرى وما لبثت الطائرتان أن ارتفعتا وما أن حلقتا بعيدا حتى تبعتهما ثلاث طائرات حربية في تشكيل أشبه بالسهم انطلقت جميعها من قاعدة عسكرية قريبة كانت مهمتها حماية الطائرتين وسار الركب بسرعة بالغة نحو الهدف ..

نحو المستشفى .. مستشفى الشرطة بالقاهرة

* * *

جلس العقيد خالد الشيمي إلى مكتبه يخيم على وجهه الحزن والأسى بينما غرق في عالم آخر من هواجسه وأفكاره .. ترى لماذا هاجت عليه الدنيا وماجت؟ .. لماذا يحال إلى التقاعد بقرار من رئيس الجمهورية؟ .. أهذا جزاؤه بعد أن خدم وطنه لسنوات وسنوات؟ .. أهذا جزاؤه بعد ذاك الملف الحافل والتاريخ المشرف؟ .. وكل هذا من أجل من؟ .. من أجل مجرم؟ .. من أجل إرهابي؟ .. ولكن .. أهو مجرم حقا؟ .. أهو حقا إرهابي؟ ترى ما هي حكايته؟ .. ترى هل ظلمناه بالفعل؟ ..

انقطع حبل أفكاره فجأة على إثر صوت طرقات على باب مكتبه فالتفت نحوه بينما يقول:

– تفضل

دلف الرائد كمال فؤاد إلى الداخل وأدى التحية العسكرية أمامه في قوة بينما يقول:

– تمام يا أفندم

– لا داعي للتحية العسكرية يا كمال لم يعد كلانا ينتمي إلى الشرطة

– هل سنستسلم يا سيادة العقيد؟

أشار إلى أحد المقاعد أمام مكتبه بإحدى راحتيه بينما يقول:

– تفضل بالجلوس يا كمال

جلس بينما يقول في أسى:

– لا يمكن أن نسكت على هذا الظلم البين

– وماذا بأيدينا يا رجل؟

– سنصعد الأمر إلى أعلى مستوى

– القرار صادر عن رئاسة الجمهورية

– نعم ولكن ..

– ولكن إلى أين يمكننا أن نصعد الأمر إذن؟ .. لقد أزفت الآزفة وما لها من دون الله كاشفة

– وهل سنترك حقنا؟

– وماذا لدينا من خيار؟

– لابد وأن نصرخ بأعلى صوت

– ومن سيسمع صراخنا؟

– أكل هذا من أجل مجرم؟

– يبدو أن الأمر أكبر من ذلك بكثير

– أريد أن أفهم إذن؟

– يبدو أن هذا أيضا ليس متاحا

– إنه أبسط حقوقنا .. لابد وأن نفهم لنستريح

– يبدو أنهم لا يريدون لنا الراحة

– لماذا؟ .. هل قتلنا زعيما وطنيا؟ .. هل قتلنا مصطفى كامل أم سعد زغلول؟

– ربما لو فعلنا لما حدث لنا ذلك .. يبدو أنه أهم من هؤلاء جميعا

نظر إليه في ارتياع قائلا:

– إرهابي أهم من زعمائنا جميعا؟

– ربما! .. من يدري؟

– لماذا كل هذا الغموض؟

– لا أدري ولكن أحدا لا يريد أن يبوح بشيء .. إنهم يحيطون الأمر بغلاف رهيب من السرية

– إنني لا أصدق أنني أشهد تلك النهاية المأسوية

– ومن يصدق يا صديقي؟ .. من يصدق؟

* * *

ربت النقيب سالم سرحان على أحد كتفي المقدم شريف زيدان الذي بدا الحزن الشديد عليه بينما يجلس إلى مكتبه في مبنى المخابرات العامة المصرية ويدفن وجهه بين كفيه بينما يقول:

– لا تلم نفسك يا سيد شريف

ترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول:

– بل أنني الملوم الأول على ما حدث

– لا تكن قاسيا مع نفسك إلى هذا الحد

– لو لم أتأخر لما حدث كل ذلك

– وهل كنت لتغير القدر؟

– إننا نصنع أقدارنا بأيدينا

– لقد بذلت كل ما في وسعك

– وما الفائدة؟

– يكفي أنك كنت السبب في كشف الحقيقة

– ولكنني تأخرت كثيرا

– الأمر لا يتعدى دقائق

– بل لقد تأخرت لسنوات

– كيف؟

– لقد تأخرت لخمس سنوات كاملة قضاها ذلك المسكين في عذاب

– وما ذنبك فيما حدث؟

لقد تسببت في كل ما يعاني .. لقد شاركت في تحويل أجمل سنوات حياته إلى جحيم

– إنه القدر

– لا أدري أين كان عقلي؟

– لقد كان كل همنا أن ننقذ الدكتور الربيعي

– لقد أنقذنا الخائن وتخلينا عن البطل .. يا لسخرية القدر!

– لقد كنا مضللون

– هذا لا ينفي مسئوليتنا عما حدث

– إنها إرادة الله وعندما أراد كشف لنا كل شيء

– ونعم بالله

– ولكن كيف هو الآن؟

– مازالت حالته خطرة للغاية

– هل تعتقد أنه سينجو؟

– لكم أتمنى .. لكم أتمنى أن ينجو ويتقبل أسفي

– إنه يستحق أن نتأسف له جميعا

واستطرد قائلا:

– هذا لو بقيت له حياة ..

لو بقيت له حياة

* * *

رفع رئيس الجمهورية رأسه عن مجموعة من الأوراق أمامه ونظر نحو وزير الداخلية الذي يجلس إلى مقعد أمام مكتبه وبدا على وجهه ابتسامة خفيفة يشوبها حزن عميق بينما يقول:

– ترى ماذا ذكرك بنا يا معالي الوزير؟

– إنك في ذاكرتي دائما يا سيادة الرئيس

– ترى ما هو الموضوع الذي أردتني من أجله؟

– لقد تعودنا أن تقابل مشاكلنا بصدر رحب يا سيادة الرئيس

– لا داعي للمقدمات فلتدخل في لب الموضوع

– لقد تعودنا من سيادتك أن تتعامل مع الجميع بالديمقراطية وطبقا لنصوص القانون

– وهل حدث مني غير ذلك؟

– للأسف يا سيادة الرئيس

– ماذا حدث بالضبط؟

مد يده نحو الرئيس بإحدى الأوراق بينما يقول:

– هذا القرار يا سيادة الرئيس

التقط الرئيس القرار من يده وألقى نظرة بداخله بينما يقول:

– ماذا به؟

– إنه قرار ظالم يا سيدة الرئيس

ضم الرئيس إحدى قبضتيه وضرب بها سطح مكتبه في قوة بينما يقول في غضب:

– ماذا تقول؟

انتفض جسد الوزير وبدا عليه الارتباك بينما يقول:

– آسف يا سيادة الرئيس .. لقد خانني التعبير و ..

قاطعه الرئيس قائلا في صرامة:

– هل تعرف ما فعلوا؟

– ولكنني لا أرى فيما فعلوا ما يشين

– هذا لأنك لا تعلم من هو بهاء شكري الذي أطلقوا عليه النار

– إنه مجرد لص مجرم و ..

قاطعه قائلا في عصبية:

– لا تزد حرفا .. لو عرفت من هو لبكيت بدلا من الدموع دما

– من هو يا سيادة الرئيس؟

هز الرئيس رأسه بينما يقول في تردد:

– للأسف لا يمكنني أن أخبرك

– لماذا؟

– لأن الأمر يندرج تحت بند "سري للغاية"

– سر علي أنا يا سيادة الرئيس؟

– على الجميع

– ولكنني أمثل أعلى سلطة أمنية في البلاد

– ولو

– وما ذنب رجالنا إذن يا سيادة الرئيس؟ .. إنهم يجهلون الحقائق لذا فقد تعاملوا مع الموقف بما تحتمه الظروف ولو كنت مكانهم لفعلت ما فعلوا بالضبط

– لقد استهانوا بحياة البشر

– لقد تصرفوا بما يمليه عليهم الواجب .. إنهم من أكفأ رجالنا يا سيادة الرئيس .. هل اطلعت على ملفاتهم؟

– لم ولن أطلع على شيء

– لم نتعود منك ذلك يا سيادة الرئيس

– لو علمت ما أعلم لحكمت عليهم بالإعدام

– لهذه الدرجة يا سيادة الرئيس؟

– إنهم لا يستحقون ذرة من رحمة ..

ذرة من رحمة

*** * ***

راحت إحدى ممرضات مستشفى الشرطة تعدو عبر ممرات المستشفى وتوقفت أمام حجرة المدير ثم طرقت بابها في لهفة ولم تنتظر حتى يدعوها للدخول ودلفت إلى الداخل بينما ترتسم الفرحة على ملامحها .. نهض المدير عن مكتبه بينما يقول:

– ماذا حدث؟

– لقد أفاق يا دكتور

– من؟ .. هل تقصدين ..؟

– نعم يا دكتور .. المريض الذي أحضره الرئيس بنفسه

– هل أنت متأكدة؟

– تماما يا دكتور .. لقد رأيته بنفسي

أسرع يرتدي سترته بينما يقول:

– لابد وأن أتأكد بنفسي

ثم أسرع يغادر الحجرة خلفها بينما يستطرد :

– هيا .. هيا بنا

راحت الممرضة تعدو لتلحق بخطواته السريعة وما أن وصل إلى حجرة العناية المركزة حتى وقعت عيناه على بهاء الذي كان يرقد على فراشه غائبا عن الوعي تماما .. نظر إلى الممرضة شزرا بينما يقول:

– لقد أفاق , أليس كذلك؟

احتقن وجه الممرضة وهي تقول:

– أقسم لك أنني رأيته و ..

قاطعها قائلا في حزم:

– حبس خميس وجمعة

– لكن يا دكتور ..

– لا أريد كلمة واحدة

نظرت نحو بهاء الفاقد الوعي وكأنها تعاتبه ثم ظفرت في ضيق ثم همست قائلة:

– أقسم أنني رأيته و ..

– إننا في مستشفى عسكري ولابد أن نتحرى الدقة في كل شيء

كظمت غيظها وهي تقول:

– آسفة يا دكتور .. ولكن الخميس والجمعة ..

قاطعها في صرامة:

– مستحيل .. لابد من العقاب حتى تتأكدي فيما بعد قبل أن تطلقي الشائعات .. ماذا كان يمكن أن يحدث لو صدقتك وأخبرت الرئيس .. كانت الدنيا ستنقلب رأسا على عقب

– أرجوك يا دكتور! .. إنه خطأ لن يتكرر

– قلت لك مستحيل

لفت انتباههما فجأة صوت بهاء بينما يتمتم بكلمات غير مفهومة فتألقت عينا الممرضة وهي تهتف:

– هل صدقتني يا دكتور؟

تجاهلها تماما وأسرع نحو بهاء والتقط أحد يديه وتحسس نبضه ثم ألقى بنظرة على الأجهزة المتصلة بجسده وتنهد في ارتياح بينما يتمتم قائلا:

– لقد أفاق .. لقد أفاق .. سيفرح الرئيس حتما ..

بل سيرقص فرحا

* * *

نهض الرئيس عن مكتبه بينما يهتف عبر الهاتف في سعادة غامرة:

– أفاق؟

– نعم يا سيادة الرئيس .. لقد أفاق

لم يتمالك نفسه من الفرح بينما يقول:

– هل أنت متأكد يا دكتور؟

– تماما يا سيادة الرئيس .. تماما

– هل أفاق بالفعل؟ .. أقصد هل حالته جيدة؟

– الأجهزة تشير إلى تحسن مفاجئ في وظائفه الحيوية وبطريقة غير مفهومة

– ألم يطلب شيئا؟

– نعم .. إنه يريد السيد شريف زيدان

– فلتنفذوا كل ما يطلب

– ولكننا لا نعرف شريف زيدان هذا ولا ندري كيف نصل اليه

– حسنا .. سأجري اتصالاتي وسيكون أمامك خلال ساعة

– أشكرك يا سيادة الرئيس

– هل طلب شيئا آخر؟

– أبدا يا سيادة الرئيس

– حسنا .. سأتصرف

وضع الرئيس سماعة الهاتف وقلبه يرقص فرحا ولكنه ما لبث أن التقطها ثانية وراح يجري اتصالا بمدير المخابرات

– لقد أفاق يا سيادة اللواء

– ماذا؟

– لقد أفاق بهاء

– صحيح يا سيادة الرئيس؟

– لقد أراد الله خيرا لتلك الأمة

– الحمد لله

– ولكنه يطلب السيد شريف زيدان .. فلترسله إليه على الفور

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

وأغلق الرئيس الخط ثم جلس إلى مكتبه وراح يسبح عبر أفكاره .. لماذا أنا هنا؟ .. يجب أن أكون هناك .. نعم .. لابد وأن أكون إلى جواره ..

لابد وأن أكون أول من يهنئه على سلامته .. سيرفع ذلك من معنوياته كثيرا .. ربما دفعه وجودي إلى جواره إلى التشبث بالحياة

ثم تمتم قائلا:

– نعم .. انه القرار الصائب .. لابد وأن أكون هناك

رفع سماعة الهاتف وقال بلا تردد:

– فلتجهزوا السيارة ..

فورا

* * *

أسرع المقدم شريف يغادر مكتبه في مبنى المخابرات العامة وراح يعدو عبر ممرات المبنى بأقصى ما يستطيع من قوة وتوقف أمام المصعد وضغط أحد أزراره في عصبية ثم ما لبث أن تركه وركض نحو السلم يهبط درجاته في سرعة بالغة ولم تمض ثوان حتى كان يقف إلى جوار سيارته حيث استقلها في سرعة بالغة وانطلق بها بأقصى سرعة ممكنة حتى أن عجلاتها أصدرت صريرا مزعجا جذبت نحوه أنظار جميع رواد الشارع .. لم يأبه بهم .. تجاوزهم في سرعة بالغة مواصلا طريقه في مهارة بالغة .. ضغط دواسة الوقود بأقصى قوته حتى أن محرك السيارة راح يصدر صوتا أشبه بالأنين .. تجاوز السيارات أمامه واحدة تلو الأخرى .. لم يأبه بهؤلاء الذين كانوا يصرخون به ويتهمونه بالجنون .. وصل أخيرا إلى المستشفى فأوقف سيارته أمامها وأسرع يغادرها تاركا مفاتيحه بداخلها .. لم يكن ليأبه بأي شيء في تلك اللحظات كان همة الأول والأخير أن يصل إلى بهاء .. وقف رجال الأمن في طريقه أمام البوابة فهتف بهم قائلا في صرامة ودون أن يخفف من سرعته:

– المقدم شريف زيدان

أفسحوا الطريق أمامه وهم يتحاشون الاصطدام به نتيجة قوة اندفاعه بينما واصل عدوه في قوة وإصرار ولم يهدأ إلا حينما وصل إلى حجرة العناية المركزة وما أن ولجها ورأى بهاء يحرك رأسه وينظر نحوه حتى تنفس الصعداء وتنهد في ارتياح وراح يلتقط أنفاسه بينما يغمغم:

– الحمد لله

ثم التفت نحو مدير المستشفى الذي يقف إلى جانب بهاء وقال:

– هل تسمح بأن تتركنا بمفردنا؟

– من أنت بالضبط؟

– المقدم شريف زيدان

– أنت؟ .. لقد حيرتنا يا رجل .. لم نكن نعرف كيف نستدل عليك

– أرجوك يا دكتور .. الأمر في منتهى الخطورة .. ثانية واحدة قد تغير مصير أمتنا بأكملها .. اتركنا بمفردنا من فضلك

احتقن وجه الرجل ولكنه ما لبث أن استعاد رباطة جأشه وراح يغادر الحجرة .. وبمنتهى السرعة

* * *

قطع رئيس الجمهورية غرفة مكتبه ذهابا وإيابا باديا على وجهه قلق بالغ ثم توجه نحو مكتبه ورفع سماعة الهاتف وقربها من أحد أذنيه ثم قال عبرها في غضب:

– ألم يجهزوا السيارة بعد؟

– إنها جاهزة يا سيادة الرئيس ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– ألا يمكن تأجيل الخروج لنصف ساعة و..

قاطعه في غضب قائلا:

– نصف ساعة؟ .. هل جننت؟

– هناك موعد مع السفير الأمريكي و..

– تبا لأمريكا كلها .. لا يمكنني التأجيل لثانية واحدة

– ولكن الأمريكيين سيعتبرون الأمر إهانة وقد تحدث أزمة دبلوماسية و ..

– ولو حدثت حرب نووية يا رجل

– حسنا السيارة جاهزة يا سيادة الرئيس

ارتدى الرئيس سترته في عجالة ثم أسرع يغادر مكتبه وما لبث أن أحاط به حرسه الخاص واصطحبوه نحو السيارة وأسرع أحدهم يفتح له بابها فاستقلها وانطلقت به على الفور .. أحس وكأن السيارة لا تتحرك من جراء لهفته فهتف بالسائق قائلا:

– لا وقت لدينا .. فلتسرع بأقصى ما تستطيع يا ابني

– ولكنها تعليمات أمنية لسلامتك يا سيادة الرئيس

قال في صرامة:

– تبا للتعليمات .. فلتنفذ ما أقول

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

ضغط السائق دواسة البنزين بأقصى ما يمتلك من قوة وانطلقت السيارة بسرعتها القصوى حتى أن سيارات الحراسة التي ترافقها ظلت تجاهد وتجاهد حتى تلحق بها ولم تمض دقائق حتى توقفت السيارة أمام مبنى المستشفى الذي كان يعج برجال الأمن الذين أمنوا المكان وأعدوه لاستقبال الرئيس وما أن هبط الرئيس من السيارة حتى أسرع حرسه الخاص يحيطون به من كل اتجاه .. راح الرئيس يحث الخطى نحو المبنى وما أن ولجه حتى اتجه مباشرة إلى حجرة العناية المركزة وطرق بابها في لهفة ثم فتحه ودلف إلى الداخل .. كان المقدم

شريف يجلس إلى مقعد إلى جوار الفراش الذي يرقد عليه بهاء ويتحدث إليه ولكنه ما أن رأى الرئيس حتى نهض يمد الخطى نحوه ويصافحه في حرارة ..

– مرحبا يا سيادة الرئيس

نظر الرئيس نحو بهاء بينما يقول في لهفة:

– هل أخبرك شيئا؟

– ليس بعد يا سيادة الرئيس .. لقد وصلت للتو

– أتسمحان لي بمشاركتكما تلك الجلسة؟

– إنه لشرف لنا يا سيادة الرئيس

ثم أسرع المقدم شريف نحو بهاء الذي يرقد على فراشه بينما يقول:

– لقد حضر الرئيس ليطمئن عليك بنفسه يا بهاء

نظر بهاء إلى الرئيس بينما يبتسم في صعوبة ويقول:

– لا أدري كيف أشكرك يا سيادة الرئيس

اقترب الرئيس منه وربت على صدره قائلا:

– لا تجهد نفسك يا ابني

نظر بهاء نحوه في امتنان فتابع الرئيس قائلا:

– أود أن أقول لك أننا آسفون يا ابني .. آسفون على كل لحظة ألم تسببنا لك فيها .. آسفون على كل لحظة ضاعت من حياتك .. ثق بأنني سأعاقب المتسبب في ذلك أشد العقاب .. إنك تستحق تمثالا ينصب لك في أشهر ميادين القاهرة

قال بهاء بصعوبة:

– لقد أنسيتني كل ما مر بي من ألم بمجيئك يا سيادة الرئيس

وأخذته نوبة من السعال قبل أن قائلا:

– ولكنني أود أن أخبركما شيئا قبل فوات الأوان

ترقرقت الدموع في عيني الرئيس بينما يقول:

– لن يفوت الأوان يا ابني .. ستعيش وستحصد ثمن نجاحك

– سر التف.. التفا ..

ولم يكمل عبارته ..

فارقت روحه الحياة وانطلقت إلى بارئها..

وانهمرت دموع الرئيس ودموع المقدم شريف تبكيه في مرارة .. بالغة

* * *

جلس الرئيس إلى مكتبه وقد ارتسم الحزن بكل صوره على ملامحه وتردد صوته في أعماقه ..

يا الهي .. لماذا أتعثر بالأغبياء كلما خطوت بتلك البلد خطوة للأمام؟ .. لطالما أردتها دولة عظيمة .. لطالما أردت أن يذكرني أهلها بالخير ..

لماذا تقف الظروف ضدي؟ .. قطع رنين الهاتف حبل أفكاره فرفع السماعة وقربها من أحد أذنيه..

– سيادة الرئيس .. هناك موعد مع السفير الصيني و ..

– فلتلغ كل المواعيد

– ولكن يا سيادة الرئيس ..

– لن أقابل أحدا .. اعتذر للجميع

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

أعاد الرئيس سماعة الهاتف إلى موضعها ثم ما لبث أن رفعها ثانية وراح يتصل بمدير المخابرات

– مرحبا يا سيادة الرئيس

– هل علمت بما حدث؟

قال في حزن:

– البقاء لله يا سيادة الرئيس

– لقد زلزل كياني برحيله

– كل من عليها فان يا سيادة الرئيس

– لقد انتهى أملنا تماما

– مازال أمامنا بعض الأمل يا سيادة الرئيس

– كيف؟

– خبراؤنا يبذلون قصارى جهدهم وسيوفقهم الله عز وجل

– لكم أتمنى .. ولكن لابد وأن نفكر الآن في تكريمه .. إنه فقيد الوطن

– بالطبع يا سيادة الرئيس

– أريد موكبا جنائزيا يليق به

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

– وليلف جثمانه بعلم مصر

– بالطبع يا سيادة الرئيس

– فلتنقلوا جثمانه بهليوكوبتر حربية إلى أهله ولتعلنوا حدادا عاما لثلاث أيام في طول البلاد وعرضها ولينشر نعيه في جميع الصحف و..

– ولكن ذلك سيلفت الانتباه وسيثير تساؤل الجميع وبذا سندخل في مشاكل نحن في غنى عنها يا سيادة الرئيس .. إننا نحتاج إلى العمل بهدوء في تلك الفترة بالذات

فكر الرئيس لبرهة ثم قال:

– إنك على حق

– الحزن في القلب يا سيادة الرئيس

– ولكن لابد وأن أحضر جنازته بنفسي

– ولكن وجودك في حد ذاته يا سيادة الرئيس سيلفت الانتباه بشدة ويثير الكثير من الشكوك

ترقرقت دموعه في عينيه بينما يقول:

– وكيف أصبر على حزني إذن؟

– سيلهمك الله الصبر يا سيادة الرئيس .. سيلهمك الصبر والسلوان

أغلق الرئيس الخط بينما يكاد الحزن أن يعتصر قلبه ودفن وجهه بين كفيه متكئا على سطح مكتبه وغرق في بحار من أفكاره وذكرياته ثانية ..

ونترك الرئيس في مكتبه مع ذكرياته ..

ترى من هو بهاء شكري؟ ..

وكيف وصلنا إلى تلك النهاية المفجعة؟ ..

ترى كيف كانت البداية؟ ..

فلنعد إلى هناك ..

إلى حيث البداية

* * *

عاد طفل في العاشرة من عمره من مدرسته مغتما حزينا بينما يحمل حقيبته في إحدى يديه ويحمل خطابا في الأخرى .. طرق باب الشقة التي يقطنها مع والدته فأسرعت تفتح الباب

وانحنت تقبله ثم أدخلته وأغلقت الباب .. لفت الخطاب في يده انتباهها فاختطفته بينما تقول:

– ممن هذا الخطاب يا ابني؟

لم تنتظر منه ردا وهي تقرأ ما كتب على غلافه ثم تمتمت بصوت خافت قائلة:

– إنه من المدرسة

وجلست إلى أريكة في الردهة وفتحته في سرعة وراحت تقرأه بعينيها وقد ظهر الحزن والجزع على وجهها وكادت دموعها تفر من عينيها وهي تهتف بابنها:

– لماذا؟ .. لماذا يا ابني؟

اقترب الصغير منها بينما يقول في تأثر:

– ماذا فعلت يا أمي؟

– ألا تدري ما فعلت؟

– صدقيني .. لم أفعل شيئا

– لماذا لا تنتبه إلى دروسك يا ابني؟ .. مدرسوك يشكون من شرودك الدائم

– إنني أفكر في أبي

ترقرقت الدموع في عينيها وانحنت نحو الصغير تحتضنه وتربت على ظهره بينما يواصل حديثه قائلا:

– لماذا تركنا يا أمي؟

– لقد سبقنا إلى الجنة يا ابني

– ولماذا يذهب وحيدا ولا ينتظرنا؟

– لأن الله أراد ذلك يا ابني

– ولماذا أراد الله عذابنا؟

– الله لم يرد عذابنا يا ابني ولكنه أحب والدك فأخذه إلى جواره

– ولكننا نحبه ونحتاج إليه أيضا يا أمي

أجلسته إلى جوارها وهي تقول:

– إن روحه ترف من حولنا يا ابني

– وهل يرانا ويسمعنا يا أمي؟

– ويفرح حين تجد وتتفوق وتنجح

ترقرقت الدموع في عيني الصغير بينما يقول:

– إنني أفتقده كثيرا يا أمي .. ليته يعود إلينا

– من يتوفى لا يعود يا ابني

– ولم لا يعود مادام يرانا ويسمعنا يا أمي؟

– لأنه في الجنة حيث لا عذاب ولا ألم

– ولماذا لا يأخذنا معه إذن؟

– لكل شيء أوان يا ابني .. ولكن لا تغير الموضوع مدرسوك يشكون منك ويرون أنه لا فائدة من محاولة تعليمك .. منذ توفي والدك وأنا أعمل وأكد وأتعب لأوفر لك مصاريف المدرسة .. لكم تمنيت أن أراك متفوقا .. لكم كان سيخفف ذلك من معاناتي وعذابي

ربت الصغير على أحد كتفيها بينما يقول في تأثر:

– أعدك أن أجد وأجتهد يا أمي

انحدرت دموعها عبر مقلتيها وهي تقول:

– وعدتني كثيرا ولم تف يا ابني

– سأفي تلك المرة يا أمي

– أريد أن أفخر بك يا بهاء

– أعدك يا أمي .. ستفخرين بي يوما

* * *

انتبه بهاء لدروسه واجتهد في دراسته منذ ذلك اليوم وراحت والدته تشجعه وتساعده وتشرح له بعض الدروس ورضي عنه أساتذته وإن أرادوا منه المزيد وذلك لأن عيني الطفل كانتا تشعان ذكاء على الرغم من ضعف تحصيله وكان السبب في ذلك شروده الدائم وما أن استطاع أن يتغلب على تلك المشكلة حتى بدأ نجمه في الظهور .. كان أستاذ العلوم في المدرسة الذي كان الأقرب لقلب الصغير قد بدأ يلحظ نبوغه .. كان يلحظ في أفكار الصغير ذكاء وعبقرية وخاصة في الكيمياء .. اقترب من الصغير وشجعه وسانده حتى أن الصغير تعلق به فصار يعتبره أبا لا أستاذا وكلما ذاد تعلقا به ذاد نبوغا في مادته .. كان بهاء في طريقه لمغادرة فصله ذات يوم عندما هتف به أستاذه:

– بهاء .. انتظر

توقف الصغير وعاد أدراجه نحو أستاذه بينما يقول:

– نعم يا أستاذي

ربت على ظهره في حنان بينما يقول:

– إنك تعلم يا بهاء أنني أعتبرك ابني

– لكم أتمنى أن يكون لي أب مثلك يا أستاذي

– ألست تعتبرني أباك؟

– بلى بالطبع يا أستاذي

– إنني عاتب عليك يا ابني

– لم يا أستاذي؟

– أساتذتك مازالوا يشكون منك

– إنني أحاول أن أجتهد قدر استطاعتي ولقد تقدمت كثيرا

– ذكاؤك يطمعهم في المزيد يا ابني

– سأحاول بإذن الله يا أستاذي

– لقد لاحظت أنك تركز معظم جهودك على العلوم والكيمياء وتهمل فروعا أخرى

– إنني أعشقها يا أستاذي

– فلتعشق كل الفروع حتى تتفوق

– لقد عشقت الكيمياء بسببك يا أستاذي

ربت على ظهره بينما يقول:

– انك ولد طيب يا بهاء .. إنني أتوقع لك مستقبلا عظيما

– صحيح يا أستاذي؟

– بإذن الله .. بإذن الله يا ابني

* * *

مرت الأيام تجر الأيام والسنون تليها السنون وبهاء يجتاز صفوفه الدراسية بتفوق وكم كانت سعادته حينما جارته الدنيا في أحلامه وأتاحت له الالتحاق بكلية العلوم قسم الكيمياء .. كان يعشق الكيمياء عشقا فتفوق ونبغ وظهرت عبقريته منذ عامه الأول بها حتى أنه صار مثار إعجاب أساتذته واعتمد زملائه على تلخيصاته ودفاتر محاضراته .. كانوا يقبلون عليه حين يستغلق على أفهماهم شيئا وكم كانت سعادته حين يستطيع مساعدة أحدهم .. كان يشعر آنذاك أن لحياته معنًا وهدف لذا فقد أحبه الجميع وقدروه أساتذة وطلابا والتفوا من حوله في ود واحترام حتى أنه عندما رشح نفسه رئيسا لإتحاد الطلبة في كليته جاءت النتيجة مدهشة .. لم يكن يحب المناصب ولكن زملاءه ضغطوا عليه ليترشح لمنصب رئيس الاتحاد وأقنعوه أن ذلك سيمكنه من مساعدة عدد أكبر من الطلاب والوصول إلى قلوبهم ليتعرف مشاكلهم ولما ألحوا عليه ولم يجد مناصا ولا مهربا من الأمر وافقهم على مضض آملا أن تأتي نتيجة الانتخابات سلبية حتى أنه لم يرهق نفسه في

عمل إعلانات أو دعاية لنفسه ولكن النتيجة كانت مذهلة بحق كان نجاحه اكتساحا غير مسبق حتى أن أحدا لم يجرؤ على ترشيح نفسه أمامه فيما بعد .. لقد كان مخلصا في حبه لزملائه فأخلصوا له الحب ورفعوه على رؤوسهم .. طاف بذهن بهاء في تلك اللحظة أحد أصدقاءه المقربين ..

– ألف مبروك يا بهاء

– أما تكفي واحدة؟

– الألف قليلة علي نجاحك الساحق يا صديقي

– الحمد لله

– إننا نهنئ أنفسنا

– ليتني أكون عند حسن ظنكم

– إنك عند حسن ظننا دائما .. ما من زميل لنا إلا ويدين لك بجميل يتمنى أن يرد إليك بعضا منه

– رد الجميل هو أن نتعاون سويا .. نتعاون لرفعة الوطن يا صديقي

* * *

مرت لحظات كان بهاء يعتبرها أسعد لحظات حياته .. أسعدها على الإطلاق كانت لحظات لقائه بسلوى .. إنها أجمل نسمة مرت على حياته فملأتها أريجا وزينتها بفتنتها الطاغية فأضفت عليها سعادة الدنيا وبهجتها .. كانت فتاة رقيقة صافية الوجه عيناها زرقاوان شقراء الشعر ابتسامتها ساحرة تخلب الألباب .. تسحر كل من يراها فتتهافت إليها العيون أينما كانت .. كان بهاء آنذاك في عامه الأول في كلية العلوم .. جاءته تطلب أحد ملخصاته في الكيمياء .. نظر في عينيها فجذبت منه كل كيانه .. لم يستطع أن يمنع نفسه

من الذوبان في عينيها .. أفاق من شبه غيبوبة سقط فيها على إثر صوتها العذب الرقيق بينما تقول:

– هل تسمح لي بالتعرف على عبقري الدفعة؟

– فهل تسمحين لي بالتعرف على أجمل جميلات الدفعة؟

ابتسمت وهي تقول:

– إذا سمحت لي سمحت لك

– أنا بهاء شكري

– ومن لا يعرف عبقري الدفعة؟

وأشارت إلى نفسها وهي تقول:

– سلوى .. سلوى حسين

ابتسم بينما يقول:

– ومن لا يعرف أجمل جميلات الدفعة؟

أطرقت في خجل وهي تقول:

– إذن فقد كنت تعرفني؟

– سامحيني .. لم أستطع منع نفسي من التلصص على ذلك الجمال البارع .. ولكنك السبب

– أنا السبب؟

– بالطبع فجمالك لا يقاوم

احمر وجهها خجلا وهي تقول:

– لكم أنت جرئ!

– ولكم أنت رقيقة!

أطرقت بعينيها في خجل ثم حاولت أن تغير الموضوع فقالت:

– لقد أنسيتني ما جئت من أجله

– وهل جئت لسبب آخر غير أن تأسري قلبي بعينيك؟

– إنني لا أمزح

– ولا أنا

اتسعت ابتسامتها فزادت جمالها جمالا وهي تقول:

– هل يمكنني استعارة دفتر المحاضرات منك؟

مد يده نحوها بالدفتر بينما يقول:

– إليك الدفتر وصاحب الدفتر

التقطته من بين يديه وهي تقول في خجل:

– بل أريد الدفتر بمفرده

واتسعت ابتسامتها وهي تضيف:

– الآن على الأقل

* * *

كانت سلوى منذ التقاها للمرة الأولى أجمل زهرة مر عليها في صحراء حياته القاحلة .. ملأت حياته عبيرا ورونقا وجمالا .. كانت منبعا لسعادته وسط صخب الحياة ومتاعبها .. كانت تمثل له كل شيء .. سطر معها أجمل ذكرياته .. لجأ إليها يشكو همومه وأحزانه .. لكم خففت عنه .. لجأ إليها في أحلك لحظات حياته .. لكم أعادت إليه الأمل .. أحبها حبا جما وتعلق بها للغاية حتى أن أجمل أيامه كانت تلك التي يراها فيها وأسعد لحظاته تلك التي يرى فيها ابتسامتها .. كان لا يقوى على رؤية دموعها .. كانت كل دمعة من عينيها خنجر يمزق قلبه فيرديه قتيلا .. يا لها من أيام جميلة مرت عليهما معا .. مرت بحلوها

ومرها فزادت كلا منهما تعلقا بالآخر ورسخت حبا ثابتا في قلبيهما .. انقضت أيام الدراسة وها هو يوم ظهور النتيجة في السنة النهائية لهما بالجامعة .. كان الهرج والمرج يسود فناء الكلية الفسيح .. راح الطلبة يتزاحمون ويتدافعون في قوة نحو لوحة الإعلانات .. كانوا لا يطيقون صبرا على معرفة النتيجة .. كان القلق باديا على الجميع .. كانوا ينتظرون نتيجة كدهم وكفاحهم وكل منهم يتوق للانطلاق إلى الحياة .. بحثت سلوى بعينيها عن بهاء في كل مكان دون جدوى ولكنها لمحته أخيرا داخلا من بوابة الكلية .. راح يعدو نحوها .. كانت تقف بعيدا عن الزحام يكاد القلق أن يقتلها ومع ذلك لا تستطيع أن تزاحم زملاءها .. ما أن وصل إليها حتى بادرها قائلا:

– لحظات وستعرفين النتيجة

لم ينتظر منها ردا ومع ذلك فقد فاز بإحدى أجمل ابتساماتها .. أسرع يخترق الزحام يدفع هذا وينفذ بجوار هذا حتى وصل أخيرا إلى لوحة الإعلانات .. وصل بشق الأنفس .. راحت عيناه تلتهمان الأسماء تبحثان عن اسمها بكل لهفة الدنيا وما أن لمحه حتى رفرف قلبه في سعادة وكاد يطير فرحا .. كانت اللوحة تعلن نجاحها وبتفوق .. تمتم بالشكر لله ثم راح يخترق الصفوف عائدا إليها .. أحاط خصرها بكلتا يديه ورفعها عن الأرض قليلا ودار بها دورة كاملة بينما يقول في سعادة:

– ألف ألف مبروك

هتفت به في لهفة:

– والتقدير؟

– جيد جدا

– وأنت؟

– أنا؟ .. ماذا عني أنا؟

ضحكت في جذل وهي تقول:

– ماذا عن نتيجتك؟

ضرب جبينه بإحدى راحتيه بينما يقول:

– صحيح .. نتيجتي

– ألم ترها؟

– لقد نسيت من فرحتي

واندفع يعدو بكل قوته نحو الزحام ليخترق الصفوف من جديد

* * *

كم كانت سعادته حين علم أنه الأول على دفعته على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى ولكن عام التخرج له مذاق ونكهة مختلفين .. وصلت سعادته إلى أوجها حين وصله خطاب من الكلية يدعوه لمقابلة العميد .. لم ينم في ليلته تلك .. ظل مستيقظا حتى الفجر .. لم تغفل عيناه لحظة واحدة ولكنه كان غارقا في أفكاره .. ترى بم سيخبره العميد؟ .. هل سيبشره باختياره معيدا؟ .. لم لا؟ .. إنه أول الدفعة ويستحق ذلك عن جدارة؟ .. ولكن أليس من المحتمل أن يتأسف له لأن الكلية لا تحتاج إلى معيدين هذا العام؟ .. انقبض قلبه بشدة حين وصل ذلك الخاطر إلى عقله وتسارعت ضربات قلبه حتى خيل إليه أنه يسمعها بأذنيه .. ترى ماذا يخبئ له القدر؟ .. هل ستظل الدنيا تحالفه أم أنها ستكشف له وجهها الآخر؟ .. ولكن لماذا التشاؤم؟ .. إنه ليس تشاؤما .. لقد أصبح الاحتمال السيئ هو الأقرب إلى واقع الحياة .. ألم يحدث ذلك مع صديق له في كلية الهندسة؟ .. بلى لقد حدث .. لقد تنكرت له الكلية وعينت أحد أبناء الأساتذة بدلا منه .. قطعت والدته حبل أفكاره وهي تلج غرفته بينما تقول:

– ألم تنم بعد يا ابني؟

– القلق يكاد يقتلني يا أمي

– من يتكل على الله لا يخيب رجاءه أبدا يا ابني

– مستقبلي يتوقف على لقاء الغد يا أمي

– مستقبلك بيد الله يا ابني فلا تخف

– ونعم بالله

– فلتحاول أن تنم قليلا .. فقد بزغ الفجر

– سأحاول

خففت أضواء الحجرة ثم انطلقت نحو حجرتها تاركة إياه في محاولاته المستميتة للتغلب على أرقه ولكن محاولاته باءت بالفشل وأبى النوم إلا أن يجافي جفونه تاركا إياه فريسة لأفكاره التي راحت تنهشه ولم ينقذه منها سوى صوت المنبه الذي راح يصدر ضجيجا مزعجا .. مد يده يضغط أحد أزراره ويوقف رنينه ثم نهض عن فراشه و اغتسل سريعا وعاد إلى حجرته حيث بدل ملابسه في عجالة وانطلق خارجا من حجرته يخطو نحو باب الشقة .. توقف فجأة حين سمع والدته تهتف به:

– ألن تتناول إفطارك يا ابني؟

عاد أدراجه نحوها وقبل رأسها بينما يقول:

– لا وقت يا أمي

– مازال الوقت مبكرا يا ابني

– القلق يكاد يقتلني

– وفقك الله يا ابني

أمسك بإحدى يديها ولثمها ثم قال:

– لكم أحتاج إلى دعواتك اليوم بالذات يا أمي

– قلبي يدعو لك دوما يا ابني

– اليوم أحتاج إلى كل دعوات الدنيا يا أمي

– لكل مجتهد نصيب .. لا تقلق يا ابني

لثم يدها الأخرى ثم تركها وانطلق ..

انطلق بكل لهفته ليعرف ..

ليعرف ماذا يخبئ له القدر

* * *

– هل يمكنني مقابلة العميد؟

– هل هناك موعد مسبق؟

رفع خطابا يمسكه بيده نحو السكرتيرة بينما يقول:

– لقد جئت بناءا على خطابكم

– أي خطاب هذا؟

سلمها الخطاب بينما يقول:

– هذا الخطاب

التقطت السكرتيرة الخطاب وفتحته ثم ألقت نظرة سريعة عليه ثم نظرت نحوه وهي تقول:

– أنت بهاء شكري؟

– نعم .. أنا

اتجهت نحو مكتب العميد بينما تقول:

– لحظات .. سأخبر العميد

وطرقت باب غرفة العميد ثم فتحته وغابت داخل الغرفة للحظات قبل أن تعود وتشير نحو الحجرة بإحدى راحتيها وهي تقول:

– تفضل .. العميد بانتظارك

دلف بهاء إلى الداخل وقد خيل إليه أنه يسمع خفقات قلبه من فرط انفعاله .. انتهى العميد من توقيع بعض الأوراق أمامه ووضعها جانبا ثم رفع رأسه نحوه وأشار إلى مقعد وثير أمام مكتبه بينما يقول:

– تفضل يا ابني .. تفضل بالجلوس

جلس بهاء في ارتباك واضح وتحشرج صوته فتنحنح قبل أن يقول:

– أشكرك يا سيادة العميد

– لقد أردت أن أهنئك بنفسي على تفوقك

– إنه لشرف عظيم لا أستحقه يا سيادة العميد

– بل انك تستحق أكثر بكثير

ثم ألقى نظرة على مجموعة من الأوراق أمامه بينما يستطرد :

– تقديرك امتياز مع مرتبة الشرف ، أليس كذلك؟

– بلى يا سيادة العميد

– ما شاء الله

وتنحنح العميد قليلا قبل أن :

لقد أردت أن أزف لك خبر تعينك معيدا لدينا في قسم الكيمياء

أحس بهاء بالفرحة تغمره وتجري في عروقه مجرى الدم فنهض عن مقعده يصافح العميد في حرارة ويشد على يده في قوة بينما يستطرد يقول:

– أشكرك يا سيادة العميد .. أشكرك بحرارة

– مرحبا بك بيننا يا ابني

– إنه لشرف لي

– أهم ما يهمنا هنا هو الالتزام والاحترام المتبادل بين الجميع

– سأكون عند حسن ظنكم .. سأكون عند حسن ظنكم بإذن الله

* * *

أراد أن تكون سلوى أول من يفرح بتعينه معيدا فانطلق إلى منزلها وطرق الباب دون تردد أو تفكير .. فتحت سلوى الباب وما أن فوجئت به حتى قالت في ارتباك بينما تتلفت حولها:

– بهاء؟

– لماذا كل هذا الارتباك؟

– أنت مجنون؟

– مجنون بحبك

– اخفض صوتك أرجوك

– لماذا؟

– أبي بالداخل

– لقد جئت أعلن للجميع حبنا

– لا وقت للمزاح الآن .. اذهب أرجوك

– لن أذهب قبل أن أقابل والدك

– لماذا؟

– سأخطبك

أحست بقلبها يرقص فرحا إلا أنها تذكرت شيئا جعل فرحتها تتلاشى فقالت:

– ألهذا جئت وحيدا دون أهل؟

– أنت كل أهلي

– ألم أقل لك إنك مجنون؟

انتفض جسدها فجأة عندما سمعت والدها يقترب بينما يقول:

– من على الباب يا سلوى؟

وضعت إحدى راحتيها على فيها بينما تغمغم بارتباك:

– إنه .. إنه ..

أقترب منها بينما يقول:

– لماذا كل هذا الارتباك؟ .. من بالباب؟

واقترب نحو بهاء بينما يقول:

– من أنت يا ابني

احمر وجه سلوى خجلا وأسرعت تركض نحو حجرتها بينما أعاد والدها السؤال على مسامع بهاء الذي بدا عليه الارتباك بدوره بينما يقول:

– إنني .. إنني ..

– إنك ماذا؟ .. تكلم يا ابني!

– إنني زميلها و ..

– وماذا؟

– وأريد أن أتحدث إليك في موضوع هام

أشار نحو الداخل بإحدى راحتيه بينما يقول:

– حسنا .. تفضل يا ابني!

وأسرع يقوده إلى حجرة الضيوف وما أن جلسا كلاهما حتى بادره قائلا:

– تفضل يا ابني .. ما هو الموضوع؟

ازداد بهاء ارتباكا بينما يقول:

– إنني .. إنني ..

– أهو موضوع صعب إلى تلك الدرجة؟

– أنه أصعب وأهم موضوع في حياتي

– إذن فهو موضوع زواج

تنهد بهاء في ارتياح بينما يقول:

– بالضبط .. بالضبط يا عمي

– إذن فقد فهمت طلبك يا ابني

– وهل توافق يا عمي؟

– الأمر ليس بالبساطة التي تتصورها

– لماذا؟

– لأنني أراك الآن للمرة الأولى في حياتي .. لابد من السؤال عنك ثم أخذ رأي العروس

– إنها توا..

قطع عبارته بشكل مفاجئ ثم أطرق نحو الأرض بينما يقول:

– آسف لاندفاعي يا عمي

– لا داعي للأسف يا ابني .. لقد كنا جميعا مثلك في شبابنا.. ولكن أليس لك قريب يصحبك في مناسبة كتلك؟

– لدي والدتي ولكنني جئت أستطلع رأيك أولا

– هل حصلت على وظيفة يا ابني؟

– لقد عينت اليوم معيدا في الكلية وهذا ما دفعني إلى أن آتي لأفرح سلوى و..

قطع كلامه فجأة وصمت لبرهة بدا خلالها مرتبكا قبل أن قائلا:

– إنك تعلم يا عمي أننا كنا زملاء و..

– لا عليك يا ابني مادام غرضك شريفا .. ولكن هل لديك شقة؟

– سنقيم لدى والدتي مؤقتا ولكن أعدك أن هذا الوضع لن يدوم

– فليفعل الله ما به الخير للجميع

– متى أعرف الرد يا عمي؟

– سأبلغك الرد عبر الهاتف مطلع الأسبوع القادم

– سأنتظر بفارغ الصبر يا عمي .. سأنتظر بفارغ الصبر

* * *

كان ينتظر أهم حدث في حياته كلها .. كان ينتظر أن يتحقق أجمل أحلامه .. مرت الأيام بطيئة متثاقلة لكنها مرت وجاء اليوم الموعود .. كان أطول يوم في حياته .. ما أن عاد من الكلية حتى جلس بهاء إلى مقعد بجوار المنضدة وقد وضع الهاتف عليها وراح يحملق به دون حراك .. بدا حانقا وكأنما ينكر عليه صمته .. ظل يرفع السماعة بين لحظة وأخري ويقربها من أحد أذنيه ليتأكد من وجود الحرارة .. ازداد قلقه مع مرور الوقت حتى أنه كان يغمغم بين الحين والآخر:

– الحرارة موجودة .. لماذا لا يصدر رنينا؟

ارتفع صوت رنين الهاتف فجأة فانتفض جسده في قوة وراح قلبه ينبض في عنف .. نهض عن مقعده في سرعة ولهفة حتى أنه أسقط مقعده بعيدا محدثا جلبة قوية ولكنه لم يبال وأسرع يختطف سماعة الهاتف ..

– ألو ..

ارتسمت خيبة الأمل على وجهه بينما يستمع إلى محدثه للحظات ثم قال في غضب واضح:

– الرقم غير صحيح .. الرقم خاطئ .. ألا تفهم؟

أعاد السماعة إلى موضعها في عنف ثم أعاد مقعده إلى موضعه وجلس ثانية وعاد يحملق في الهاتف بينما يكاد قلقه أن يقتله

انتبه على صوت والدته التي اقتربت منه وهي تقول:

– فلتسترح قليلا يا ابني وسأوقظك بمجرد أن يتصلوا

– وكيف يواتيني النوم في يوم كهذا يا أمي؟

ارتفع صوت رنين الهاتف فجأة فقطع حديثهما ونهض بهاء ثانية وانتزع السماعة من موضعها في لهفة حتى أنها سقطت من يده وأسرع يلتقطها ثانية ويقول عبرها:

– ألو

جاءه صوت سلوى وهي تقول في رقة:

– ألو

ابتسم في سعادة بينما يهمس:

– سلوى؟

– وهل تنتظر مكالمة من فتاة أخرى؟

– ومن يمكنها أن تعوضني عن أجمل وأرق فتاة في الوجود؟

ابتسمت في سعادة وهي تقول:

– لقد وافق أبي

لم يصدق أذنيه .. ظن أنه يحلم .. هل يمكن أن تتحقق أحلامه بمثل تلك البساطة؟ .. قطع صوتها حبل أفكاره وهي تقول؟

– أما زلت معي على الخط؟

– نعم .. نعم ولكنها الفرحة .. لقد تحققت كل أحلامي

– حقا؟

– أنت كل أحلامي

– وهل حلمت بي؟

– أنت حبي وغرامي

احمرت وجنتيها خجلا ثم ابتسمت في سعادة وهي تقول:

– لقد أبلغتك ما أريد .. سلام

– سلام يا أجمل من في الوجود

أعادت سلوى السماعة إلى موضعها بينما راح بهاء يقبل سماعتة ويحتضنها ويرقص بها .. يا لها من سعادة بالغة تلك التي شعر بها في ذاك اليوم .. لقد اعتراه إحساس لم يشعر به من قبل .. إحساس أقل ما يوصف به أنه رائع .. بل رائع للغاية

* * *

كان يوما من أجمل أيام حياته ذلك اليوم الذي جلس فيه إلى جوار سلوى خلال حفل زفافهما بينما نشرت البهجة أجنحتها على المكان .. وقف الأهل والأصدقاء يتبادلون الأحاديث في جو من المرح ويتضاحكون ويرقصون على خلفية من الموسيقى الرائعة والأغاني الجميلة من خلال فرقة رائعة أدارت الحفل في براعة واقتدار .. كانت سلوى في قمة سعادتها وقد ذاد فستان الزفاف على جمالها جمالا وعلى فتنتها فتنة .. كانت كأجمل ما تكون العروس .. كانت حورية من الجنة .. أمسك بهاء بأحد كفيها بين راحتيه يبثها حبه ..

– لكم أحبك يا فاتنتي

أطرقت نحو الأرض في خجل وهي تقول:

– وأنا ..

– وأنت ماذا؟

– وأنا ..

– ها ..

– وأنا أحبك

– أخيرًَا

– أخيرًا ماذا؟

– أخيرًا سمعتها تخرج من بين شفتيك الجميلتين

– هل أنت سعيد يا بهاء؟

– بل في قمة السعادة

– أتحبني من قلبك؟

– ألم تخبرك عيناي؟

– بم؟

– بأنني أذوب في هواك عشقا

ابتسمت في سعادة وهي تقول:

– وأنا أيضا

قبل إحدى يديها في وله بينما يقول:

– فليقدرني الله على إسعادك يا حبيبتي

– وليقدرني على إسعادك أيضا

– مادمت إلى جوارك سأظل سعيدا على الدوام

– ومادمت إلى جوارك سأعيش في سعادة .. سعادة وهناء

* * *

– مفاجأة .. لدي مفاجأة يا حبيبتي

– وأنا أيضا

– إذن فهو يوم المفاجآت

قبل بهاء إحدى وجنتيها بينما يستطرد :

– ما هي مفاجأتك يا حبيبتي

– ليس قبل أن أعرف مفاجأتك

– ولماذا لا تخبرني أولا؟

– ما رأيك في أن نعلن عنهما سويا في وقت واحد؟

ابتسم بينما يقول:

– سأتنازل كالعادة وأخبرك أولا

ابتسمت وهي تقول:

– مساكين أيها الرجال .. لابد وأن تجدوا حلا لتلك التنازلات .. لماذا لا تعرضون قضيتكم على الأمم المتحدة أو جمعية الرفق بالرجال؟

قهقه ضاحكا ثم قال:

– أعدك سنفكر بالأمر

– والآن ما هي المفاجأة

– لقد تحدد موعد مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بي

هتفت في سعادة:

– صحيح؟

– سأطير من السعادة

– لا أرجوك .. ليس قبل أن تسمع مفاجئتي فقد نطير سويا

قبل إحدى وجنتيها بينما يقول:

– لكم أحبك يا فاتنتي

– وأنا أعشقك يا زوجي العزيز

قبل إحدى راحتيها بينما يقول:

– لم تخبريني عن مفاجأتك

– لن أخبرك .. تكفيك واحدة

وتملصت من بين يديه وركضت مبتعدة فراح يطاردها بينما يضحكان في سعادة

– لن أخبرك إياها

أمسك بها وجذبها إلى حضنه بينما يقول:

– ستخبرينني وإلا ..

– وإلا ماذا؟

– وإلا قتلتك تقبيلا

– لن أخبرك

ابتسم بينما يقول:

– إذن فأنت تريدين ذلك

احمر وجهها خجلا وهي تقول:

– لقد أحرجتني .. سأخبرك

– إلى بالمفاجأة إذن

– إنني ..

– ها

– إنني ..

– إنك ماذا؟

– إنني حامل

ورفرف قلبه في سعادة .. سعادة غامرة

* * *

وقف يوم مناقشة رسالته كالصقر .. وقف بهاء بين أيدي أساتذته يحاورهم ويجادلهم ويطارحهم الرأي بالرأي ويقنعهم بآرائه ونظرياته مؤيدا كلامه بالدليل القاطع الذي لا يقبل الشك حتى أنه نال إعجاب الجميع .. انقضت ساعات لم يشعر بها إلا أنه حين انتهى النقاش وبدأ أساتذته يتشاورون فيما بينهم أحس وكأن الزمن قد توقف .. أحس بنبضات قلبه تتسارع وتضرب قي عنف حتى خيل إليه وكأنها طلقات مدفع ألي .. حاول أن يتمالك نقسه ويطمئنها إلا أن محاولاته ذهبت سدًا .. رفع عينيه نحو السماء يطلب معونة الخالق ودعمه وتوفيقه وما أن فعل حتى أحس بهدوء غريب ينبع من داخله ..

" تعلن اللجنة بالإجماع أن بهاء شكري قد نال درجة الماجستير بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف وللمرة الأولى يتمنى أعضاء اللجنة وجود تقدير أعلى حتى يتسنى لهم إيفاءه حقه "

وارتجت جنبات القاعة بتصفيق حاد .. صفق الحضور في حماس شديد حتى كادت أيديهم أن تلتهب وراح بعضهم يطلق صفيرا بينما زغردت والدته في سعادة .. أحس بهاء وكأنه في حلم جميل لا يريد أن يفيق منه أبدا .. كان قلبه يرفرف من السعادة بينما يركز بصره على زوجته تارة ووالدته تارة ويرى سعادة الدنيا في أعينهما .. إنه يوم لا ينسى في حياته .. وكيف ينساه وقد كان آخر ما أهدته الدنيا من سعادة ثم كشفت له وجهها الآخر.. كشفت له وجهها القبيح .. كان الجميع يتوقعون له مستقبلا باهرا في ذلك اليوم وخاصة أساتذته الذين بدا عليهم الإعجاب به إلى أقصى الحدود حتى أنهم كانوا يحسدون الدكتور

مصطفى الربيعي لإشرافه على رسالته .. كان الدكتور عبد الرحمن السعيد من أشد المؤيدين والمتحمسين له حتى أنه اقترب من الدكتور الربيعي وبادره قائلا:

– إنه عبقري بحق يا دكتور

– فعلا .. لقد لاحظت عبقريته مذ كان طالبا

– إنه يتحدث في الكيمياء بمنتهى البساطة وكأنها لغتة الأم التي يتقنها

– إنه يستحق الامتياز عن جدارة

– إنني أتوقع له مستقبلا باهرا

– ليته يستمر على حماسه

– وماذا يمكن أن يمنعه؟

– بلادنا تقتل الطموح دائما وبدلا من أن تشجع العلم والعلماء تشجع الرقص والأغاني وكرة القدم

– لو سمعك مشجعوا كرة القدم يا دكتور لمزقوك إربا

– مادمنا سنستمر في تفاهاتنا تلك فلن نتقدم أبدا

– كل يؤدي دوره في خدمة الوطن يا دكتور

– نعم

– ولكن بصفتك مشرفا على رسالته فعليك أن تشجعه فمن المتوقع أن يجلب لنا نوبل جديدة

– بإذن الله يا دكتور .. بإذن الله

* * *

طرق بهاء باب حجرة مكتب الدكتور الربيعي في هدوء وما أن سمعه يدعوه للدخول حتى فتح الباب ودلف إلى الداخل .. أشار الدكتور الربيعي إلى مقعد أمام مكتبه بينما يقول:

– تفضل بالجلوس يا ابني

جلس بهاء بينما يتمتم:

– أشكرك يا دكتور

وقع الدكتور الربيعي بعض الأوراق أمامه وما أن انتهى منها حتى بادره بهاء قائلا في قلق:

– هل انتهيت من رسالة الدكتوراه خاصتي يا دكتور؟

ركز الدكتور الربيعي نظره عليه للحظات ثم قال:

– إنك تعلم يقينًا أنني لا أحب المجاملات

– نعم يا دكتور

فتح الدكتور الربيعي درج مكتبه وأخرج منه ملفا متخما بالأوراق ألقاه على سطح المكتب أمامه بينما يقول في حدة:

– لا أصدق حرفا مما كتبت في رسالتك للدكتوراه تلك

– لماذا يا دكتور؟

– إنه مجرد هراء

– لماذا؟

– لأنك تذكرني بدجالي العصور القديمة الذين أرادوا تحويل التراب إلى ذهب

– أقسم لك أن كل ما برسالتي دقيق للغاية يا دكتور

– كيف يمكنني أن أصدق تحول الماء إلى بنزين؟

– ليس الماء يا دكتور

– ماذا إذن؟

– إنها الرمال يا دكتور تتحول بالتفاعل الكيميائي إلى مادة مركزة للغاية يجب أن نخففها بالماء للغاية حتى نحصل على مادة سريعة التطاير سريعة الاشتعال مثل البنزين ولكنها ليست بنزينا

– وما الفارق؟

– الفارق شاسع يا دكتور

– كيف؟

– المادة التي سنحصل عليها ليست من الماء إنها تخفف بالماء ولكنها من الرمال ثم أنها ليست بنزينا وسرعة اشتعالها لو تركت مركزة تفوق البنزين بمئات المرات

– هل تعني ..؟

– نعم يا دكتور .. لو طبقنا قوانين نيوتن "لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار ومضاد له في الاتجاه" هذا يعني أنه يمكننا تسيير السيارات بأضعاف سرعتها الحالية بتحكمنا في تركيز تلك المادة كما يمكننا استخدام تلك المادة كوقود للصواريخ والطائرات من دون تخفيف

– نعم .. نعم

– بالإضافة إلى شيء هام جدا يا دكتور

– ما هو؟

– إننا سنضمن مصدرا رخيصا لطاقة لا تنضب فتلك المادة مستخلصة من مواد رخيصة متوفرة للغاية كما أننا لا نحتاج سوى كمية ضئيلة من تلك المادة لصنع عشرات اللترات من الوقود مما سيحل أزمة الوقود ويخفف الضغط على البترول و..

قاطعه قائلا في اهتمام:

– وهل جربت تلك المادة؟

– لقد جربتها في المعمل ولكن تطبيقيا ليس بعد

– وما الذي يمنعك من تطبيق ذاك الابتكار المذهل يا ابني؟

– في الواقع أنني لا أمتلك سيارة و ..

قاطعه قائلا:

– سيارتي تحت تصرفك من الآن

والتقط مفاتيح سيارته من فوق مكتبه ومد يده بها إليه بينما يقول:

– تفضل يا ابني

ولكنه عاد وضم قبضته عليهم وأبعد يده ثانية بينما يستدرك:

– ولكن لماذا لا أصحبك لأرى بنفسي؟

ونهض عن مكتبه وارتدي سترته ثم قال:

– هيا بنا .. ولكن ..

نهض بهاء عن مقعده بينما يقول:

– ولكن ماذا يا دكتور؟

هل معك بعضا من تلك المادة الآن؟

– لدي ملئ قطارة

قال مستنكرا:

– ملئ قطارة؟

– لن نحتاج سوى تلك الكمية .. أنسيت يا دكتور؟ .. إنها مركزة للغاية

– نعم .. نعم .. هيا إذن ..

هيا

* * *

بدت السعادة واضحة على وجه بهاء بينما يجلس إلى المقعد المجاور للدكتور الربيعي الذي احتل مقعد القيادة في سيارته والتي تنطلق بهما بسرعة رهيبة جعلتها تتجاوز كل السيارات أمامها في قوة وثبات ..

– أنت رائع يا ابني .. بل أكثر من رائع

– أشكرك يا دكتور

– بل أنا من يشكرك وستشكرك البشرية كلها

– ليس إلى هذا الحد يا دكتور

– لقد اقتربت من جائزة نوبل بسرعة لم أتوقعها يا ابني

– أنت تبالغ كثيرا يا دكتور

– أبدا يا ابني .. ابتكارك هذا سيغير وجه الدنيا .. لا يمكنك أن تتخيل ما ستجنيه مصر من ابتكارك هذا

– الفضل لك يا دكتور

– بل الفضل لله الذي منحك عقلا جبارا

– الحمد لله

– ولكنني أريد أن أحذرك

– مم يا دكتور؟

– من أن تفش السر ولو لأعز أصدقائك

ثم مد يده إليه يسلمه القطارة الفارغة بينما يضيف:

– وحذار أن تسقط تلك المادة في أيدي أحدهم فقد يمكنه تحليلها والتوصل إلى مكوناتها

– لا تخشي شيئا من ذلك يا دكتور .. إنني لم أخبر أحدا بالأمر سواك

– حسنا .. سأوصلك إلى منزلك

– لا داعي يا دكتور

– إنه لشرف لي أن أفعل يا ابني .. إنه لشرف عظيم لي

* * *

اعتدل الدكتور الربيعي في مقعده وأشار نحو مقعد وثير أمام مكتبه بينما يقول لبهاء الذي يقف أمامه مشدوها:

– تفضل يا ابني .. استرح وسأشرح لك الأمر

– جلس بهاء بينما يتمتم:

– أشكرك يا دكتور

– لقد فكرت كثيرا في تلك المادة التي ابتكرتها .. إنها فعلا رائعة وستحل أزمة الطاقة في العالم بل وستحل كل مشاكل مصر الإقتصادية ولكن ..

قاطعه بهاء في قلق:

– ولكن ماذا يا دكتور؟

– لقد هالني ما يمكن أن يحدث من جراء استخدامها

– وماذا يمكن أن يحدث يا دكتور؟

– هل فكرت في أثر اختراعك على دول الخليج مثلا؟

– إنها لن تتأثر مطلقا

– على العكس .. اختراعك هذا سيفقدها اقتصادها دفعة واحدة

– لماذا؟

– لأن اقتصادها يعتمد على البترول بنسب مرتفعة للغاية

– الأمر ليس كذلك يا دكتور

– كيف الأمر إذن؟

– المادة التي ابتكرتها تستخدم كوقود للسيارات فقط وبذا ستخفف الضغط على البترول وتفسح له المجال لاستخدامه في صناعات أخرى مهمة كصناعة البلاستيك والنسيج ورصف الطرق ولا تنسى أن البترول طاقة غير متجددة وستنضب إن آجلا أو عاجلا

– لاحظ أن معظم الدول العربية تستمد أهميتها الإستراتيجية من وجود البترول في أراضيها ومادتك تلك ستهبط بالبترول إلى مستوى متدني من الأسعار مما سيؤثر سلبا علي اقتصادياتها وبالتالي على قضاياها

قال في دهشة:

– قضاياها؟

– القضية الفلسطينية مثلا

– وما شأن ابتكاري بالقضية الفلسطينية؟

– سيفقد الفلسطينيون كل الدعم المادي من الدول العربية وبذا لن يجدوا مالا لشراء الأسلحة وبذا ستموت القضية

– مصر لن تتخلى عنهم يا دكتور

– مصر غارقة في مشاكلها الاقتصادية يا ابني

– مادتي ستحل كل مشاكلها وتجعلها تتفرغ لحل كل قضايا الأمة العربية العالقة

– إنك تحلم يا ابني .. ما أن تعلن ابتكارك على العالم حتى يأخذوا مادتك ويحللونها ويتعرفون على مكوناتها ثم يصنعونها بأنفسهم ويستغنون بها عن البترول الذي يستوردونه منا ولن يمضي وقت طويل قبل أن يبدؤوا في تصديرها إلينا وبسعر أقل من تكلفة تصنيعها لدينا وبذا نكون قد حرمنا الدول العربية مصدر ثروتها و تصبح فقيرة معدمة

– يمكننا الحفاظ على أسرار وظروف التفاعل وبذا يمكننا احتكارها

– وكيف ستحافظ على سر كهذا

– لقد احتطت لهذا الأمر جيدا

– مهما كانت احتياطاتك يا ابني .. السر لو تجاوز صاحبه لم يعد سرا

– إذن سأحتفظ بالسر

– هل تظنهم سيمنحونك الدكتوراه ما لم تطلعهم على السر؟

– سأتنازل عن الدكتوراه في سبيل نهضة وطني

– وماذا عن تصنيع تلك المادة هل ستصنعها بنفسك؟ .. لابد وأن يطلع البعض على السر وهؤلاء لن يترددوا في أن يبيعوا آباءهم في سبيل حفنة من المال

– لو فكرنا بتلك الطريقة لما انتفعنا بعلم أبدا

– أما سمعت ما يتردد في تلك الأيام؟

– وماذا يتردد؟

– يتردد أن حروب العالم القادمة حروب مياه

– سمعت ذلك كثيرا

– ذلك يعكس بوضوح مدى ما يعاني العالم من نقص في موارد المياه

– بالضبط

– الكون كما تعلم يقوم على التوازن بين عناصره ولو اختل هذا التوازن ضاع النظام وحدثت الكارثة

قال بهاء في دهشة:

– أي نظام؟ وأي كارثة؟

– دورة الماء تعتمد على عدم تحوله إلى مادة كيميائية أخرى حيث يتبخر ويعود إلينا في صورة مطر وهكذا تدور الحياة

– وما علاقة ذلك بمادتي؟

– مادتك ستحول الماء إلى وقود عندما يحترق سيتحول إلى ثاني أكسيد الكربون وطاقة وبذا سيختل التوازن مما قد يؤدي إلى بؤس ومجاعات في كل أنحاء العالم

– ما سيؤدي إلى مجاعات هو اتجاه العالم إلى الوقود الحيوي الذي يتم إنتاجه من المحاصيل الزراعية بسبب ارتفاع أسعار البترول مما سيؤدي إلى ندرة المحاصيل وتضاعف أسعارها .. ثم أنه يبدو أنك قد أسأت فهم مادتي يا دكتور

– كيف؟

– إنني لا أحول الماء إلى مادة قابلة للاشتعال وإنما أستخدم الماء فقط في تخفيف تلك المادة للحد من سرعة احتراقها وبذا لن يتحول الماء إلى ثاني أكسيد الكربون كما تقول وإنما سيتحول إلى بخار الماء الذي يواصل دورته ليعود في صورة مطر من جديد

– ولو .. مازلت مصرا على أننا لابد أن نتريث قليلا

– لقد كان رأيك مخالفا بالأمس لقد كنت تشجعني

– وما زلت يا ابني ولكنني أريدك أن تتريث حتى يمكننا أن نقتل الأمر بحثا من جميع الجوانب

– حسنا يا دكتور .. سأنتظر حتى ننتهي من دراسته تماما

– وأنا لا أطلب منك أكثر من ذلك يا ابني .. لا أطلب أكثر من ذلك

* * *

– ماذا بك يا بهاء؟

– لا شيء يا أمي

– الحزن يكاد أن يقتلك يا ابني

– إنها مشاكل العمل يا أمي

خرجت سلوى من المطبخ في تلك اللحظة وبيدها مغرفة الطعام وهي تقول:

– دقائق وسيكون الطعام جاهزا

– لا رغبة لي بالطعام

– لقد أعددت لك الطعام الذي تحبه

– سأنام قليلا

قالت الأم في حزن:

– كيف ستنام ومعدتك خاوية يا ابني؟

– أرجوك يا أمي .. إنني مرهق للغاية

تركهما وخطا نحو حجرته وما أن ولجها حتى استلقى على فراشه وما لبث أن غرق في أفكاره .. ترى لماذا غير الدكتور الربيعي كلامه بين ليلة وضحاها؟ .. لماذا انقلبت آراؤه رأسا على عقب؟ .. لقد كان متحمسا للأمر أشد الحماس .. لماذا يحاول إقناعي بأفكار لا أظنه مقتنعا بها .. لماذا يحاول أن يثبط عزيمتي؟ .. لماذا يضخم الموضوع أكثر من اللازم؟ .. لماذا يصورني وكأنني قد خنت وطني وبعت القضية الفلسطينية؟ ..

ما لبث النوم أن هاجم جفونه فاستسلم له تماما وراح يغط في نوم عميق .. لم تمض ساعة واحدة على نومه حتى استيقظ على إثر هزات خفيفة من زوجته ..

– بهاء .. استيقظ يا بهاء

فتح عينيه في صعوبة بالغة بينما يقول:

– اتركيني لأنام يا سلوى .. اتركيني أرجوك

وأغمض عينيه ثانية إلا أن زوجته عادت إلى محاولاتها ..

– استيقظ يا بهاء .. استيقظ أرجوك

نهض متقرفصا على فراشه بينما يتثاءب ثم قال في ضجر:

– ماذا حدث يا حبيبتي؟

– كارثة .. مصيبة

بدا عليه القلق بينما يقول:

– ماذا حدث بالضبط؟

– لابد وأن ترى بنفسك

تصاعد القلق بداخله فنهض عن فراشه بينما يقول:

– ماذا أرى بالضبط؟

التفطت إحدى يديه وجذبته ليسير معها نحو الردهة ثم أشارت إلى التلفاز وهي تقول:

– فلترى هذا البرنامج

قال في استنكار:

– أتوقظينني لأشاهد برامج التلفاز؟

لفت شيء ما انتباهه بشدة فراح يحملق في شاشة التلفاز وقد اتسعت عيناه في دهشة وارتسم الذعر على ملامحه ..

لا يمكن أن يكون هذا واقعا ..

لابد وأنه يحلم ..

لابد وأنه يعاني كابوسا رهيبا ..

أيمكن لأحلامه أن تنهار دفعة واحدة؟ ..

مستحيل ..

بدا وكأنه لا يصدق عينيه ..

كان ينتظر أن يستيقظ هاربا من كابوسه ..

ولكن كل شيء كان يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن ذاك هو واقعه ..

واقعه المرير ..

مادت به الدنيا ودارت حتى أسقطته أرضا ..

أسقطته فاقدا لوعيه ..

تماما

* * *

أسرعت والدة بهاء نحو الطبيب الذي خرج للتو من حجرة ابنها وهي تقول في لهفة:

– خيرا يا دكتور؟

– إنه يعاني صدمة عصبية حادة

اتسعت عيناها في ذعر وهي تقول:

– صدمة عصبية حادة؟

– يبدو أنه قد سمع خبرا أزعجه

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

– أبدا يا دكتور .. لقد كان نائما و ..

قاطعتها سلوى قائلة:

– بل لقد سمع خبرا أزعجه للغاية يا أمي

نظرت إليها والدة بهاء في جزع وهي تقول:

– أي خبر ذاك يا ابنتي؟

– فيما بعد يا أمي .. سأخبرك فيما بعد

قال الطبيب محذرا:

– لقد حقنته بجرعة من عقار مهدئ وأرجو ألا يتعرض لأي مؤثرات خلال الأيام القادمة وإلا ..

– قاطعته الأم في جزع قائلة:

– وإلا ماذا يا دكتور؟

– وإلا كانت العواقب وخيمة .. ولابد من إبلاغي بأي تطورات قد تستجد

– بالطبع يا دكتور

وما أن انصرف الطبيب حتى أسرعت سلوى نحو الحجرة حيث يرقد بهاء فوجدت والدته وقد سبقتها إلى هناك وهي تغالب دموعها بينما تغمغم:

– ترى ماذا ألم بك يا ابني؟

اهتز جسدها في عنف وهي تسمعه يهذي بصوت خافت:

– المجرم .. أحلامي .. دمر حياتي .. ضاع .. ضاع كل شيء .. سأقتله .. أقسم أن أقتله

جففت عرقه الذي يتصبب غزيرا على جبينه بمنديلها بينما تقول:

– ترى ماذا حدث لكل ذلك يا ابني؟

إنها المرة الأولى التي تسمعه فيها يتحدث عن القتل .. حتى لو كان ذلك من خلال هذيانه .. إنها لا تصدق ما تسمع .. ماذا حدث لكل ذلك؟

انتبهت لوجود سلوى فجأة فنظرت إليها وهي تقول في عصبية ممتزجة بالحزن:

– أخبريني يا ابنتي! .. ماذا حدث بالضبط؟

– مصيبة يا أمي .. مصيبة

– تكلمي يا ابنتي! .. تكلمي أرجوك!

– سأخبرك كل شيء يا أمي .. سأخبرك كل شيء بالتفصيل

* * *

تعالى صوت أقدام أحد أفضل ضباط المخابرات الإسرائيلية "دافيد حاييم" بينما يخطو خطوات واثقة قوية عبر الممر المؤدي إلى حجرة مكتب مدير المخابرات الإسرائيلية "الموساد" وتوقف أمام الحجرة مباشرة ثم طرق بابها في ثقة وما أن سمع من يدعوه للدخول

حتى دفع الباب في هدوء ودلف إلى الداخل .. أشار مدير المخابرات إلى مقعد أمام مكتبه بينما يقول:

– اجلس يا حاييم

جلس حاييم بينما يقول:

– خيرا يا سيدي .. لقد طلبتني على وجه السرعة

– الأمر خطير للغاية يا حاييم

قال حاييم في قلق:

– ماذا حدث يا سيدي؟

– ألم تسمع بما يحدث في مصر؟

قال في قلق:

– ماذا يحدث يا سيدي؟

– ألم تر ذلك المؤتمر الصحفي الذي لا يملون من تكرار بثه على الفضائيات المصرية؟

– أي مؤتمر ذلك يا سيدي؟

– يبدو أنك لا تعيش معنا في تلك الدنيا

تلعثم بينما يقول:

– إنك تعلم يا سيدي أنني أنجز مهمة خطيرة في قطاع غزة منذ أيام لذا فأنا مشغول للغاية ولا أتابع وسائل الإعلام

– إنه مؤتمر صحفي أقامه أحد المصريين وأثار ضجة إعلامية رهيبة

– للأسف يا سيدي مهمتي تشغل كل وقتي

– فلتترك تلك المهمة لأحد زملائك

– ولكنني على وشك إنجازها و..

قاطعه في صرامة:

– لا وقت لدينا .. الأمر أخطر مما تتصور

– ولكن يا سيدي ..

قاطعه في حدة قائلا:

– لا أحب سماع تلك الكلمة

– كما تأمر يا سيدي

– منذ ساعات عقد أحدهم مؤتمرا صحفيا أعلن به خبرا خطيرا للغاية

قال حاييم وقد تملكه الفضول:

– أي خبر هذا يا سيدي؟

– من الأفضل أن ترى المؤتمر بنفسك وبكل تفاصيله

وضغط أحد الأزرار إلى جانب مكتبه بينما يستطرد :

– لن تحتاج إلى الترجمة بالطبع فأنت خبير باللغة العربية فقد كنت تعمل في سفارتنا بالقاهرة , أليس كذلك؟

– بلى يا سيدي

قطع حديثهما صوت طرقات خفيفة على الباب فنظر مدير المخابرات نحوه بينما يقول:

– أدخل

دلف أحد الرجال إلى الداخل بينما يقول:

– أمرك يا سيدي

– فلتعرض علينا تسجيلا للمؤتمر الصحفي الذي عقد في مصر

– كما تأمر يا سيدي

وأسرع الرجل يسدل الستائر القاتمة على نوافذ الحجرة حتى أظلمت تماما ثم أدار آلة سينمائية عكست أضوائها صورة واضحة على شاشة بيضاء معلقة على الجدار المقابل لمكتب مدير المخابرات وتوالت الصور لتنقل المؤتمر الصحفي ..

الرهيب

* * *

على الرغم من تلك الغيبوبة العميقة التي سقط بها بهاء من أثر تلك الجرعة المهدئة التي حقنه بها الطبيب إلا أن أحداث المؤتمر الذي شهده عبر التلفاز راحت تتكرر عبر أحلامه .. كان مؤتمرا صحفيا عقده أستاذه ومثله الأعلى– للأسف– الدكتور الربيعي فجر خلاله مفاجأته أو قنبلته كما يسميها .. كان يقف خلف منصة خشبية يعلن على العالم ابتكاره الذي سيهز الدنيا على حد تعبيره .. كان يمسك بزجاجة كبيرة امتلأت عن آخرها بسائل رمادي شفاف بينما يهتف قائلا:

– والآن يا سادة بعد أن شرحت لكم كيف ستغير تلك المادة وجه الدنيا وتقلبها رأسا على عقب ..

ضجت القاعة بتصفيق حاد وما أن انتهى التصفيق حتى هتف الدكتور الربيعي في حماس:

– والآن يا سادة فلنجرب تلك المادة حتى يراها الجميع ويهتفوا باسم مصر ويشيدوا بعبقرية أبنائها الفراعنة

ثم أشار نحو باب القاعة بينما يستطرد :

– هيا .. معي يا سادة لتروا بأعينكم

وانطلق الرجل مغادرا القاعة حاملا زجاجته وخلفه جيش من رجال الصحافة والإعلام

لم يستطع بهاء التحمل .. أحس برأسه تدور حاول أن يصرخ محتجا إلا أن حنجرته لم تطاوعه على الكلام .. أحس بالدنيا تدور به .. كيف يحدث ذلك من أستاذه ومثله الأعلى؟ .. أستاذه الذي يجله ويقدره ويضعه في منزلة عظيمة من قلبه .. إنه يفخر به دائما أمام زملائه وأقرانه .. كيف أمكن لأستاذه العظيم أن يخون؟ .. كيف أمكنه أن

يطعنه في ظهره؟ .. لقد جاءته الطعنة من حيث لم يتوقع أبدا .. لابد وأن هناك خطأ ما .. لا يمكن أن يكون هذا هو الواقع .. إنه يحلم .. لابد وأن يستيقظ حتى ينتهي ذلك الكابوس الرهيب .. لابد وأن يذهب إليه .. لابد وأن يقابله ويستفسر عما حدث .. ولكن بماذا يمكن لأستاذه أن يفسر مثل ذلك العمل الخسيس؟ .. كيف يمكن أن يبرر حقارته؟ .. ماذا يمكن أن يسوق له من أعذار تبرر ذاك الفعل الشنيع؟ .. ومهما برر فهل سيعيد إليه ابتكاره؟ .. هل سيعيد إليه أحلامه؟ .. لقد انتهى كل شيء .. لقد انهار صرح أحلامه .. ولكن لا .. لابد أن أفعل شيئا .. لن أقف مكتوف الأيدي ..

وردد بصوت مكتوم:

– لابد أن أفعل شيئا .. لن أقف مكتوف الأيدي

هتفت سلوى التي تجلس إلى مقعد بجوار فراشه في سعادة:

– هل أفقت يا حبيبي .. حمدا لله على سلامتك

ترقرقت دموعه في عينيه بينما يقول في حزن:

– ليتني أموت لأستريح

– أبعد الله الشر عنك يا حبيبي

– لقد ضاع كل شيء

– كل شيء يمكن تعويضه

– كيف؟ .. كيف؟

– لابد وأن تظهر الحقيقة يوما .. لابد

– أديري التلفاز من فضلك

أسرعت تنفذ ما يريد إلا أنها سرعان ما ظهر على وجهها الندم علام فعلت وهي تستمع معه إلى نشرة الأخبار كان المذيع يقول في حماس:

– هذا وقد أعلنت لجنة نوبل أنها ستضع الدكتور الربيعي على رأس قائمة مرشحيها لنيل الجائزة في الكيمياء لهذا العام كما أعلن رئيس الجمهورية في خبر عاجل جاءنا للتو أنه يعتز بالدكتور الربيعي أيما اعتزاز كما أعلن سيادته أنه سيقلده وسام الجمهورية من الدرجة الأولى وسيمنحه جائزة الدولة التشجيعية هذا وقد صرح سيادته بأنه مهما قلده من أوسمة ومهما منحه من جوائز فلن يرد ولو جزءا ضئيلا من فضل ذلك العالم الجليل الذي رفع اسم مصر عاليا في سماء المجد والعزة

نهض بهاء عن فراشه بينما يهتف في هستيرية:

– المجرم .. لماذا وثقت به؟

اقتربت زوجته منه وراحت تربت على إحدى كتفيه وهي تقول:

– اهدأ يا حبيبي .. اهدأ أرجوك

– كيف أهدأ وأحلامي تنهار من حولي؟

– وماذا يمكنك أن تفعل؟

– لابد وأن أفعل شيئا .. لابد

* * *

دفن مدير الموساد وجهه بين راحتيه متكئا على سطح مكتبه بينما يقول في أسى:

– إنها حقا لكارثة

أطرق حاييم برأسه نحو الأرض قائلا:

– حقا .. إنها كارثة بكل المقاييس

ثم ما لبث أن رفع وجهه بينما يستطرد قائلا:

– ولكن أليس من المحتمل أن يكون الرجل أفاقا؟

– مستحيل يا حاييم

– لم؟

– إنه أستاذ جامعي محترم يحمل درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية وله العديد من الأبحاث العلمية الهامة كما أنه حصل على العديد من الجوائز العلمية العالمية .. هل تظن أن من يحمل تاريخا علميا حافلا كهذا يمكن أن يكون أفاقا؟

– ربما ..

– هل تظنه سيخاطر بتاريخه وسمعته العلمية ما لم يكن متأكدا تماما مما يقول؟

– إذن فاحتمال أن يكون أفاقا مستبعد تماما

– بالطبع يا حاييم .. ما دام الرجل قد أعلن ذلك على الملأ فلا يوجد احتمال للشك في كلامه ولو بنسبة واحد في المليون

– إنها كارثة يا سيدي

– بالطبع يا حاييم .. إنه بذلك يضيف إلى بلاده رصيدا لا ينضب من الطاقة

– وستصب أموال العالم بأكمله في مصر عدونا اللدود

– هل تدري ماذا يمكن أن يترتب على ذلك؟

– بالطبع يا سيدي سيصبح اقتصادهم أقوى اقتصاد في العالم

– وهذا سيجعل لهم قوة إستراتيجية وكلمة نافذة في كل المحافل الدولية ناهيك عن أنهم ما أن ينتهوا من مشاكلهم الاقتصادية حتى يتفرغون لنا تماما

– وهذا يعني أنهم سيصبحون أعظم خطر على إسرائيل

– لقد أصبح الدكتور الربيعي بين ليلة وضحاها المرشح الأول لجائزة نوبل في الكيمياء

– للأسف يا سيدي

– سيضيف ذلك إلينا فشلا جديدا

– لماذا يا سيدي؟

– هل تدري كم من المصريين نال تلك الجائزة حتى الآن؟

– نعم يا سيدي

– وهل تدري كم من الإسرائيليين نال تلك الجائزة؟

– إننا دولة ناشئة حديثا و ..

قاطعه قائلا:

– الخطورة تكمن في أن ذلك سيعزز من ثقتهم في أنفسهم ويجعلهم يتحمسون للعلم ويسيرون بخطا واسعة على طريق التقدم وفي هذا أكبر الخطر على إسرائيل

– بالطبع يا سيدي

– إنني أذكرك بكل ذلك يا حاييم حتى تدرك حجم الخطورة في مهمتك

– أدرك ذلك جيدا يا سيدي

– مهمتك لا تقتصر بالطبع على الحصول على تلك المادة والمعادلة الخاصة بتركيبها فحسب

– أعلم يا سيدي .. لابد من تصفية الرجل أيضا

– بالطبع ولكن ليس قبل أن تلوث سمعته العلمية وتشكك في كل ما أعلن .. لابد من حرمان العرب من الجائزة أيضا .. لا أريد للرجل أن يكون شهيدا .. لابد وأن ننتزع فرحتهم من جذورها .. هل تفهمني يا حاييم؟

ابتسم حاييم ابتسامة مقيتة بينما يقول في ثقة:

– أفهمك يا سيدي .. أفهمك تماما

* * *

اقتحم بهاء حجرة مكتب الدكتور الربيعي واندفع نحوه في قوة فنهض الأخير عن مكتبه بينما يهتف به في غضب:

– هل جننت؟

صرخ به قائلا:

– ألا يدفعني ما فعلت بي إلى الجنون؟

– إنني لا أفهم شيئا .. ماذا فعلت بك؟

– ألا تعلم يا دكتور؟

– وكيف لي أن أعلم؟

– ابتكاري يا دكتور

– ماذا عنه؟

– لماذا نسبته إلى نفسك؟

– أي ابتكار هذا؟

قال في تهكم:

– مادتي التي ابتكرتها أيها اللص

قال في حدة:

– هل جننت؟

– لأنني أطالب بحقي؟

– يبدو أنك مضلل للغاية

– مضلل؟

– إنك ولا شك مضلل .. لابد وأنك قد مستقطب من قبل أعدائي

قال في تهكم:

– هذا أنا؟

– إنني مقدر لما أنت فيه .. اهدأ أرجوك وسنتفاهم

وأشار نحو مقعد وثير أمام مكتبه بينما يقول:

– تفضل .. تفضل بالجلوس يا ابني

جلس بينما يغمغم قائلا :

– ها قد جلست

جلس الدكتور الربيعي بدوره بينما يقول:

– فلنتفاهم بالعقل يا ابني .. هل دونت كيفية تصنيع تلك المادة في رسالة الدكتوراه الخاصة بك؟

تلعثم بهاء بينما يقول:

– لا .. لم يحدث

– هل حدث وسلمتني عينة من المادة التي ابتكرتها؟

– لم يحدث

– كيف حصلت أنا على ابتكارك إذن؟

– لا أدري .. ولكنك حصلت عليه بطريقة ما

– ولماذا الجنون يا ابني .. لابد وأن هناك تفسيرا لما يحدث

– وما هو؟

– ربما ابتكرت مادة مشابهة لمادتي ولكنها ليست هي بالتأكيد

– ماذا تعني؟

انتصب واقفا بينما يقول في حدة:

– أعني أن تلك المادة التي أعلنت عنها من ابتكاري أنا .. إنني أجري عليها أبحاثي منذ سنوات

انتصب بهاء واقفا بدوره بينما يقول:

– ولماذا كنت تحاول إقناعي ألا أعلن عن مادتي؟

– في الواقع المادتان وإن كانتا مختلفتين إلا أنهما يحملان نفس الفكرة والإعلان عن إحداهما سيجعل من الأخرى غير ذات أهمية وكان لابد أن أدافع عن مادتي وأفوز عليك بالسبق العلمي

– إذن فقد كنت تخدعني وتضمر لي الغدر

– كان لابد وأن أدافع عن تعبي وأبحاثي .. ولو كنت مكاني لفعلت ما فعلت بالضبط

– ولكنني متأكد أنها نفس المادة التي ابتكرتها

نظر الدكتور الربيعي نحوه باستفزاز قائلا:

– قد يكون هناك نوعا من التخاطر الذهني بيننا مكنك من قراءة أفكاري والتوصل إلى مادتي

قال في غضب:

– لا تحاول خداعي؟ .. إنني لا أصدق حرفا مما تقول

– لماذا؟

– لأننا لسنا بصدد رواية من روايات الخيال العلمي

– ألا تذكر تلك التجربة المثيرة التي كتبت عنها الصحف؟

– أي تجربة تلك؟

– تجربة إحدى طرفاها في الإتحاد السوفيتي والآخر في الولايات المتحدة وكلما خط الأول شيئا على ورقة أمامه كان الآخر يخطها بالضبط حتى الأخطاء كانت هي نفسها

– ولكن هذا لا يحدث الا نادرا

– كم تبلغ نسبة حدوثه في رأيك؟

– لا يتعدى واحدا في المليون

– إذن فكم من المرات يمكن أن يتكرر في عالم تجاوز تعداده ستة مليارات من البشر؟

– إنك مخادع حقير

صرخ الدكتور الربيعي به في غضب:

– لقد قدرت ظروفك وتحملت أسلوبك الجارح بما فيه الكفاية لا لشيء سوى أنني أقدر تفوقك العلمي ولكن مادمت قد تجاوزت كل الحدود فلا أريد أن أراك ثانية

ثم أشار نحو باب الحجرة بإحدى راحتيه بينما يستطرد في عصبية شديدة:

– فلتخرج من مكتبي فورا!

ضغط بهاء أسنانه في قوة بينما ينظر إلى الدكتور الربيعي غير مصدق لما يحدث ثم ما لبث أن أشاح بوجهه عنه بعيدا وخطا نحو الباب بينما قدماه لا تقويان على حمله .. بالمرة

* * *

جلس الرائد جون رايت أحد أقوى ضباط المخابرات الأمريكية هادئا على مقعد وثير أمام مكتب مدير المخابرات الأمريكية على الرغم من قلقه البالغ الذي يشتعل بداخله وبادره الأخير قائلا:

– لعلك قلق بشأن استدعائك على وجه السرعة

– بالطبع يا سيدي

– الأمر خطير للغاية مستر رايت

– ماذا حدث بالضبط يا سيدي؟

– تعلم بالطبع أن دوام الحال من المحال

– تلك هي حال الدنيا يا سيدي

– وللأسف ينطبق ذلك على الحضارات أيضا

– الحضارات؟

– نعم .. الحضارات

– إنني لا أفهم شيئا .. هل حدث ما يهدد حضارتنا؟

– لأن كل حضارة تقوم على أنقاض سابقتها لذا فالإجابة هي نعم

– ماذا تعني يا سيدي؟

– تعلم بالطبع أن حضارتنا قامت على أساس هام ألا وهو اقتصادنا القوي الذي مكننا من سيادة العالم سياسيا وتكنولوجيا

– بالضبط يا سيدي

– وتعلم أن الحضارات تنقلب عبر نقطة فاصلة في تاريخ الشعوب

– نعم

– لقد وصلنا للأسف إلى تلك النقطة الرهيبة

– ماذا تعني؟

– أعني أننا لابد وأن نتحرك بأقصى سرعة ممكنة لإنقاذ حضارتنا ومنع أي حضارة أخرى من القيام على أنقاضها

– لقد أقلقتني كثيرا يا سيدي

– لابد وأن نقلق جميعا حتى يمكننا أن نتحرك بالسرعة التي يقتضيها الموقف منا

– ماذا حدث بالضبط يا سيدي؟

– لقد تفوقت علينا إحدى الدول

– كيف؟

– هل تذكر حرب أكتوبر بين مصر وإسرائيل؟

– ومن يمكنه نسيان تلك الحرب يا سيدي؟

– آنذاك ضغط علينا العرب وأوقف بعضهم تصدير البترول إلينا

– نعم

– وتذكر بالطبع تلك الأزمة الطاحنة التي حدثت في أمريكا كلها من جراء ذلك

– بالطبع .. أذكر ذلك جيدا على الرغم من أنني كنت طفلا آنذاك

– لقد هدد وزير خارجيتنا – وكان كيسنجر آنذاك – العرب بأنه سيجعلهم يشربون بترولهم

– نعم يا سيدي

– منذ ذلك الحين عكف علماؤنا على ابتكار نوع من الطاقة الرخيصة لاستبدال البترول بها وتلقين العرب درسا قاسيا

– ولقد نجحوا على حد علمي يا سيدي

– على العكس

– ولكنهم توصلوا للعديد من صور الطاقة منها الطاقة النووية والطاقة الشمسية وطاقة الرياح و ..

– كل هذا عظيم ولكنه مكلف للغاية ويحتاج إلى تغيير جذري لكل الأجهزة والمحركات .. لقد كنا نتطلع إلى وقود يحل محل البترول دون أن يرهق اقتصاديات العالم

– ماذا عن الوقود الحيوي؟

– إنه كارثة في حد ذاتها

– كارثة؟

– نعم .. كارثة بكل المقاييس

– لماذا؟

– لأنه ينتج من المحاصيل الزراعية التي يتغذى عليها البشر مما أدى إلى ارتفاع أسعار الغذاء بصورة جنونية تنذر بحدوث مجاعات في العديد من دول العالم

– لعل علماءنا على الطريق يا سيدي

– الكارثة أن عالما مصريا قد توصل إلى هذا الابتكار

قال في استنكار:

– ماذا؟ .. عالم مصري؟

– للأسف

– وهل هؤلاء الأفارقة المتخلفون لديهم ما يمكن أن نطلق عليهم علماء؟

– لا تنسى أن دكتور زويل الذي نال جائزة نوبل مصري الأصل

– ولكنه تعلم لدينا

– تقصد أكمل تعليمه لدينا .. إنه خريج جامعة الإسكندرية يا رجل

– لولا ما قدمنا له من رعاية واهتمام وإمكانات وفرناها له لما أمكنه الحصول على تلك الجائزة أبدا

– دعك من هذا الآن ولنتعامل مع الواقع .. لقد ابتكر أحدهم طاقة بديلة للبترول من الرمال ولو استطاعوا احتكار تلك الطاقة فسنظل تحت رحمتهم لأجيال وأجيال وسيزدهر اقتصادهم بينما يضمر اقتصادنا

– إنني لا أصدق ما يحدث

– لعلك أدركت ما هو المطلوب منك بالضبط

– الحصول على ذاك الوقود بالطبع

– ليس هذا فحسب

– ماذا أيضا يا سيدي؟

– لابد وأن يبدو عالمهم أمام العالم أفاقا

– لماذا يا سيدي؟

– حتى يصفق لنا العالم بحماس عندما ننسب ابتكاره إلينا بعد عدة أشهر

– ولكنه سيصنع تلك المادة من جديد وقد ..

– هذا لو تركناه يفعل مستر رايت فما أن نحصل على بغيتنا ونلوث سمعته العلمية حتى ..

ومرر سبابته أمام عنقه بينما يستطرد :

– حتى نقتله .. على الفور يا رجل

* * *

"ماذا تقول يا ابني؟"

صرخ عميد كلية العلوم في وجه بهاء بهذه العبارة في استنكار مما جعل بهاء يصرخ به بدوره:

– أقول الحقيقية

– أي حقيقة تلك؟

– الحقيقة التي لا تريدون تصديقها

– فلتقل شيئا معقولا حتى يمكننا تصديقك

– أقسم لك أنها الحقيقة

– لابد وأنك قد جننت

– جننت؟

– لا أدري لماذا تريد أن تمحو فرحتنا؟

– أنا؟ .. أنا أمحو فرحتكم؟

– لماذا تزرع الشك في سمعة أهم علمائنا؟ .. لابد وأنك مأجور

– أقسم ك أن تلك المادة من ابتكاري أنا .. لقد خدعني

– أتدري عمن تتكلم؟

– إنه هو الدكتور الربيعي

– أتدري من هو الدكتور الربيعي؟

– إنني أعلم من هو جيدا

– إنه حاصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية كما أنه حاصل على العديد من الجوائز العلمية العالمية والمحلية وله من الأبحاث ما هز به الدنيا

قال بهاء في سخط:

– إننا لا نقدر إلا من نال شهاداته من الخارج .. ما الفارق لو نالها من هارفارد أو من السلوم؟

– الفارق في الإمكانات .. في التطور العلمي الهائل الذي يفوقنا بمراحل

– وهل منحوه شهادة في الأمانة العلمية؟

– إنني أحذرك يا ابني .. لابد وأن تحترم أساتذتك

– هذا لو كنتم أساتذتي

قال في غضب:

– ماذا تقصد؟

– أقصد أنكم مجموعة من اللصوص أحدكم سرق أفكاري والآخر ينصب نفسه محاميا له بدلا من أن يحقق في الأمر بموضوعية وحياد .. لقد وقعت في براثن عصابة من الأوغاد

صرخ العميد به في غضب:

– ماذا تقول أيها الغبي؟

– أقول الحقيقة .. ماذا يمكنكم أن تفعلوا بي أكثر مما فعلتم هل ستذبحونني؟ .. هل ستسلبون مني حياتي؟ .. ليتكم تفعلون لأستريح من دنيا بها أمثالكم

واصل العميد صراخه قائلا:

– لقد تخطيت كل الحدود .. يبدو أنك مجنون

اندفع بهاء نحوه وضم إحدى قبضتيه وكال له لكمة أودعها كل غضبه فسقط العميد أرضا ووضع يده على موضع اللكمة بينما يتأوه في ألم .. بدا للحظات أنه لا يصدق ما حدث ولكنه تمالك نفسه سريعا ونهض من سقطته بينما يصرخ به قائلا:

– فلتعتبر نفسك مفصولا أيها الغبي!

– فلتذهب إلى الجحيم! .. فلتذهب إلى الجحيم!

* * *

خطا بهاء خطوات بطيئة متثاقلة في إحدى ممرات الكلية .. بدا وكأنه يتعلم المشي من جديد .. كان كطفل يخطو أولى خطواته في تلك الدنيا .. كان حزن الدنيا بأكمله قد تجمع وارتسم على ملامحه .. أحس بالدنيا وقد ضاقت به على وسعها .. شعر وكأنه يختنق مما جعله يخفف من إحكام رابطة عنقه ولكن ذلك لم ينجح في التخفيف عنه .. كان ما يخنقه يكمن بداخله يطبق على صدره يكاد يقتلع قلبه .. أحس بأنه على وشك السقوط أرضا وأن قدماه لم تعودا قادرتين على حمله فاتكأ على الحائط بينما ينظر نحو السماء في حزن وأسى وكأنما يعاتبها على ما حدث .. راحت أفكاره تهاجمه وتزيد من حزنه وكآبته .. ويلي ماذا فعلت؟ .. لماذا لجأت إلى ذلك الوغد العميد؟ .. هل كنت أتوقع منه أن يحل مشكلتي؟ .. لقد تعامل معي وكأنني الخائن لا ذلك الوغد الخسيس .. يا لجبني وضعفي! .. هل شلت يداي؟ .. لماذا لم أقتل الوغد الربيعي وأشفي غليلي؟

رفع كلتا راحتيه أمام وجهه بينما يهتف في هستيريا قائلا:

– لماذا جبنت يداي؟ .. لماذا لم تكتما أنفاسه؟

ثم راح يوجه كلامه إليهما فيما يشبه الجنون:

– إن لم تساعداني على استرداد حقي فمن يساعدني؟

اغرورقت عيناه بالدموع بينما يضيف:

– إنني جبان ضعيف .. ضعيف في عالم لا مكان فيه للضعفاء .. إننا في غابة .. غابة لا يحكمها إلا قانون الغاب

وانتفض فجأة بينما يقول:

– إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب .. الفرصة لم تضع بعد

أسرع الخطى نحو المعمل الذي يجري به تجاربه ودفع بابه في عنف ثم راح يفتح أدراجه في عشوائية حتى عثر على سكين التقطه في سرعة وخبأه في ملابسه وراح يحث الخطى نحو مكتب الدكتور الربيعي .. لم يطرق باب الحجرة ولكنه اقتحمها في عنف ثم أغلق بابها من خلفه .. نهض الدكتور الربيعي عن مكتبه مشدوها بينما يصرخ به:

– كيف تجرؤ على اقتحام مكتبي هكذا؟

قال بهاء في هستيريا:

– كما جرؤت على اقتحام حياتي ودمرت مستقبلي

ثم التقط السكين من بين ملابسه ولوح بها في وجهه بينما يقترب منه رويدا رويدا .. أحس الدكتور الربيعي بالدماء وقد تجمدت في عروقه ولكنه تغلب على ذهوله وصرخ به:

– هل جننت؟

– سأجن إن تركتك تعيش لتسلبني أحلامي

تراجع الدكتور الربيعي خطوات للوراء بينما يقول في رعب:

– اهدأ يا ابني .. لا تضع حياتك هباء

اقترب بهاء منه ممسكا بالسكين بينما يقول:

– لا فائدة .. لقد ضاع كل شيء

– المستقبل واسع أمامك

اقترب بهاء منه أكثر وأكثر ملوحا بالسكين في وجهه بينما يقول:

– لقد سلبتني مستقبلي

تراجع الدكتور الربيعي للخلف خطوات بينما يقول:

– إنك عبقري وستبتكر الكثير والكثير

لم يجد صدى لكلامه على وجه بهاء الذي تغطت ملامحه بآثار المقت والكراهية فأسرع الدكتور الربيعي يضغط أحد الأزرار على أحد جانبي مكتبه بيد مرتعشة يملؤها الخوف اقترب بهاء منه بينما يقول:

– هل تظن أن أحدا يمكن أن ينجدك مني؟

واندفع نحوه بينما يرفع السكين ويهم أن يطعنه ولكن الدكتور الربيعي لم يستسلم .. تلقى معصمه بين راحتيه وراح يقاومه في إصرار وزاده تمسكه بالحياة قوة وإصرارا إلا أن فتوة الشباب في ذراع بهاء سرعان ما تغلبت على كلتا راحتي الدكتور الربيعي اللتين أوهنتهما السنون وواصل السكين طريقه نحو الدكتور الربيعي ولكن بعد أن انحرف مساره بفعل المقاومة ليصيب أحد كتفيه وسقط الدكتور الربيعي على مقعده بينما سالت دماؤه في غزارة لتغرق ملابسه وتجهز على مقاومته تماما .. رفع بهاء السكين ثانية وهم أن يهبط بها على قلبه مباشرة إلا أنه فوجئ بوصول رجال أمن الكلية الذين اندفعوا نحوه في سرعة وتمكنوا منه مكبلين حركته بينما يصرخ بهم في هستيريا:

– دعوني أقتله .. دعوني أرجوكم .. دعوني أقتله

أخرج أحدهم منديلا التقط به السكين من يد بهاء بينما يصرخ الدكتور الربيعي بهم قائلا:

– لقد حاول قتلي .. اتصلوا بالشرطة! .. لابد وأن ينال جزاءه ..

واستطرد قائلا في صرامة بالرغم من جرحه:

– إنه إرهابي .. إرهابي خطير

* * *

نظر وكيل النائب العام نحو بهاء الذي جلس مرتبكا إلى مقعد أمام مكتبه ومقت واضح يظهر في عينيه نحوه بينما يقول في صرامة:

– ما قولك في التهم المنسوبة إليك؟

– إنها تهمة واحدة .. هل أصبحت تهما؟

– إنك متهم بالشروع في القتل وممارسة البلطجة والإرهاب

– بلطجة وإرهاب؟

ضرب وكيل النائب العام سطح مكتبه بإحدى راحتيه بينما يقول في غضب:

– ألا تعي ما فعلت؟

– بل أعي تماما

– ألا تعي من كنت تحاول أن تقتل؟

– إنه لص حقير

ألقى نحوه نظرة تحدي بينما يقول:

– العالم بأكمله يجل الرجل ويقدره

– لأنه مخدوع به

قال في حدة:

– إنه حديث صحف العالم

– إنهم لا يعلمون حقيقته

– لابد وأنك عميل لدولة أجنبية تريد حرمان مصر من فرحتها

– بل إنني من جلب لمصر فرحتها

ضغط وكيل النائب العام على أسنانه في غيظ بينما يقول في غضب وازدراء:

– أنت؟

– نعم أنا

قال في تهكم:

– وكيف ذلك أيها العبقري؟

– إنني أعترف بمحاولتي قتل الدكتور الربيعي ولكن ذلك ليس لأنني إرهابي

– لماذا حاولت قتله إذن؟

– لأنه سرق ابتكاري ونسبه إلى نفسه

– هل تقصد ..؟

– نعم .. تلك المادة .. تلك المادة من ابتكاري أنا

– هل جننت؟

– لماذا؟

– الدكتور الربيعي ذو سمعة علمية عالمية لا يتطرق إليها الشك

– إنه شيطان .. لقد خدع الجميع

– هل لديك دليل واحد على ما تقول؟

أخرج قطارة من جيب سترته مليئة بسائل رمادي داكن ورفعها في مقابل وجه وكيل النائب العام بينما يقول:

– لدي تلك المادة التي ابتكرتها

تجاهل وكيل النائب العام يده الممدودة فعاد بهاء يخفضها ويعيد القطارة إلى جيب سترته بينما يقول الأول بلهجة عدوانية مستفزة:

– ولماذا لا تكون أنت من سرق منه تلك المادة؟

– أقسم لك إنها من ابتكاري أنا

– وكيف حصل عليها الدكتور الربيعي؟

– إنه المشرف على رسالة الدكتوراه الخاصة بي

– ومتى سلمته تلك الرسالة؟

– منذ اسبوع تقريبا

– وهل كتبت في رسالتك كيفية تصنيع تلك المادة؟

– نعم ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– لقد احتفظت لنفسي بأسرار وظروف التفاعل

– إذن فهل سلمته عينة من تلك المادة؟

– أبدا

– كيف حصل على تلك المادة إذن؟

– لا أدري

– موقفك ضعيف للغاية يا سيد بهاء.. هل يمكنك إعطائي سببا واحدا لتصديقك

– لابد وأن تصدقني

– لماذا؟

– لأن تلك هي الحقيقة

– الحقيقة بلا دليل واهية يا سيد بهاء يمكن للدكتور الربيعي أن يقاضيك من أجلها

– لن يفعل

– وماذا يمنعه؟

– يمنعه الخوف من افتضاح أمره

– سيد بهاء .. القانون هو القانون ولو افترضنا أن كل ما تقول صحيحا هل يبرر لك ذلك محاولة قتل الرجل؟

– ماذا تعني؟

– لقد أخطأت ولابد أن تنال عقابك

– ولكن هذا ظلم .. ظلم

– أنت من ظلم نفسه يا سيد بهاء كان ينبغي أن تلجأ إلى القضاء لتستعيد حقوقك .. هناك قانون ينظم حياتنا

– أي قانون هذا الذي يقف إلى جانب الظلم؟

– إننا لم نظلمك يا سيد بهاء

– بل ظلمتموني

– ألم تحاول قتل الدكتور؟

– إنها مجرد محاولة .. دعوني أقتله ثم افعلوا بي ما شئتم! .. دعوني أرجوكم! .. دعوني أقتله ثم اشنقوني! .. أرجوكم!

* * *

جلس بهاء وحيدا مرتديا حلة السجن الزرقاء على مصطبة خرسانية في أحد جوانب فناء السجن وقد شرد فيما قد آل إليه حاله كان يتحدث إلى نفسه دونما صوت كان يتحدث في داخله ..

هل ستتحمل خمس سنوات في ذلك السجن الرهيب يا بهاء؟ .. مستحيل لن أحتمل .. لابد من حل .. ماذا جنيت لأستحق خمس سنوات من العذاب؟ .. ما كنت أريد إلا خدمة بلادي .. لماذا يحدث لي كل ذلك؟ ما سرت يوما إلا بجوار الحائط .. لماذا أنا بالذات؟ .. لماذا؟

انتبه على صوت أحد المساجين وخلفه مجموعة كبيرة من المساجين وقد اقترب منه ووضع نصل سكين أسفل رقبته بينما يقول:

– ها هو الخائن يا رجال

التفت بهاء نحوه في رعب بينما يقول:

– ماذا تقول يا رجل ؟ .. إنني ..

قاطعه الرجل قائلا:

– إنك ماذا ؟ .. إنك خائن وتستحق الموت

ونظر نحو المساجين خلفه بينما يستطرد :

– أليس خائنا يا رجال؟

ساد هرج ومرج بين المساجين وتدافعوا في الكلام في آن واحد يجمعهم العداء والكراهية الشديدة نحو بهاء

فاستطرد الرجل بينما يزيد من ضغط سكينه على رقبة بهاء:

– هل أقتله يا رجال؟

اقترب أحدهم قائلا في حدة:

– بل سأقتله أنا

قال ثان صائحا:

– بل أنا

قال ثالث بعنف:

– لن يقتله إلا أنا

اندفع رابع يقول:

لن يذبحه غيري .. سأخلص البلد من شره

قال بهاء وقد أرغمه السكين تحت رقبته على رفع رأسه لأعلى:

– تمهلوا يا رجال! .. ألا يمكننا أن نتفاهم؟

قال أحدهم:

– سنقتلك أولا ثم نتفاهم

قال بهاء في رعب:

– أرجوكم .. دعوني أدافع عن نفسي

قال أحدهم:

– كيف ستدافع عن نفسك أيها الخائن؟ .. لقد حاولت قتل الرجل الذي شرف مصر

– سأخبركم بالحقيقة

قال آخر:

– أي حقيقة؟ .. سنقتلك ثم نبحث عن الحقيقة عل مهل

هم الرجل الذي يمسك بالسكين أن يفصل رأس بهاء عن جسده بينما يقول:

– سأقتلك أيها الخائن وبعدها ..

سمع صوتا من خلفه يقول:

– انتظر يا رجل

التفت الجميع نحو مصدر الصوت وتراجعوا في خوف ليفسحوا الطريق بينما تمتم بعضهم:

– رشدي السويفي

تقدم رشدي السويفي نحو بهاء والرجل الذي يهدده بسكينه بينما يقول:

– حذار أن تمسه بسوء يا رجل .. إنه صديقي

أبعد الرجل سكينه عن رقبة بهاء بينما يقول في غضب:

– ولكنه خائن و..

صفعه السويفي صفعة قوية على وجهه بينما يصرخ به قائلا:

– حذار! .. حذار أن تهين صديقي يا رجل!

* * *

فتح الجاويش باب الزنزانة التي يتشارك فيها بهاء ورشدي السويفي وهتف بصوت مرتفع قائلا:

– بهاء شكري .. زيارة

التفت السويفي الذي يجلس إلى جوار بهاء نحوه ولكزه في جنبه قائلا:

– زيارة لك يا رجل

لم يبدو على بهاء أنه سمعه فقد كان شاردا غارقا في أفكاره

مرت لحظات لم يتلق الجاويش ردا خلالها فاتجه نحو بهاء الجالس على أرضية الزنزانة ولكزه بقدمه في قوة بينما يقول في غضب:

– لماذا لا ترد أيها الغبي؟

بد وكأن بهاء يفيق من غيبوبة عميقة ..

– هه

قال الجاويش متهكما:

– ألا تريد الزيارة يا سيد بهاء؟

رفع بهاء عينيه نحوه بينما يقول في حزن:

– إنني لا أريد إلا شيئا واحدا يا جاويش

– ماذا تريد يا رجل؟

– الموت يا جاويش

قال متهكما:

– لماذا لم يرأف بك القضاة ويخففوا الحكم عنك من السجن إلى الإعدام؟

– ليتهم فعلوا!

– إنك تستحق الإعدام عن جدارة

– أتكرهني إلى تلك الدرجة يا جاويش؟

– الكراهية شيء قليل على أمثالك .. مصر كلها تكرهك ولا تطيق النظر في وجهك يا رجل

– ليتهم أعدموني ليستريح الجميع

– إنك تستحق الإعدام الف مرة

– إلى هذا الحد؟

– بل وأكثر .. مصر كلها خرجت في مظاهرات تطالب بإعدامك

– ولكنهم مضللون يا جاويش

– هل نتسامر ونترك الزيارة؟

– من يريد زيارتي يا جاويش؟

– لا أدري من ذا الذي يتحمل رؤية وجهك الكريه

– ولكن اليوم ليس موعدا للزيارة

– يبدو أنه شخص عزيز على مدير السجن حتى أنه سمح له بذلك

– قد لا أريد رؤيته

جذبه الجاويش من ياقه سترة السجن التي يرتديها ودفعه أمامه في عنف بينما يقول:

– فلتحمد الله على أن هناك من يتحمل رؤياك يا رجل

تملص بهاء من قبضة الجاويش التي تطبق على ياقة قميصه بينما يقول في غضب:

– لا تدفعني هكذا يا جاويش

أغلق الجاويش باب الزنزانة بينما يقول:

– ليتني أستطيع دفعك في نار جهنم؟

– إنني إنسان محترم و..

قاطعه الجاويش مستنكرا:

– لا تقل محترم يا رجل

– إنني معيد بكلية العلوم وكنت على وشك نيل الدكتوراه و..

– وهل لإنسان محترم أن يفعل ما فعلت؟

– أخبرتك مرارا أنني بريء

– ألا تخجل من نفسك حين تردد ذلك وقد أمسكوا بك متلبسا بجريمتك؟

– سيفخر بي الجميع يوما

– ألأنك خنت وطنك؟ ألا تدري أن الصحف تطلق عليك "الخائن الأعظم" يا رجل؟

– إنني أكثر الناس وطنية و..

عاد يمسك بياقة قميصه ثانية ويدفعه في عنف بينما يقول ساخطا:

– أمامي أيها الوغد .. هيا أمامي

* * *

نهض مأمور السجن عن مكتبه بينما يقول لضيفه:

– سأتركك معه يا دكتور ولكن حذار فهو مجرم خطير

ثم اندفع خارجا من الحجرة بينما نظر بهاء باذدراء إلى الرجل الذي جاء لزيارته وهو يقول غاضبا:

– أنت؟

جلس الدكتور الربيعي إلى أحد المقاعد أمام مكتب المأمور بينما يقول:

– نعم .. أنا

– وهل تجرؤ على زيارتي؟

– اهدأ يا ابني! .. اهدأ أرجوك!

صرخ بهاء به قائلا:

– لا تقل ابني!

أطرق الرجل نحو الأرض بينما يقول:

– كما تريد .. ولكن لي حديث معك

– لا حديث لي مع الأوغاد أمثالك

– حتى لو أخبرتك أنني سأعيد إليك حقوقك كاملة؟

ركز بهاء ناظريه في عيني الدكتور الربيعي بينما يقول في شك:

– هل ستعترف بأن تلك المادة من ابتكاري يا دكتور؟

قال في تردد:

– ليس بالضبط

– لا حديث بيننا إذن

– أتدري ما يمكن أن يتسبب فيه اعتراف كهذا من فضائح؟

– كيف ستعيد إلي حقوقي إذن؟

أشار إلى مقعد مقابل بينما يقول في هدوء:

– اجلس يا ابني ..اجلس أرجوك

جلس بهاء إلى المقعد المقابل بينما يغمغم بضيق قائلا:

– ها قد جلست .. وبعد؟

– هناك عرض محدد

قال في إصرار:

– عرضك مرفوض يا دكتور

– قبل أن تسمعه؟

– لست أتوقع خيرا من خائن

– لا داعي للإهانة يا ابني .. لقد استيقظ ضميري وجئت ..

– وهل لدى أمثالك من ضمير؟

– أرجوك يا ابني استمع إلى عرضي ولك أن تقبل أو ترفض

– لست أتوقع سوى عرض خسيس من خسيس

– إنني أقدر حالتك النفسية لذا فسأغفر لك إهانتي

– لا داعي لتمثيل دور الأب الورع أمامي

– ما رأيك في البراءة من كل التهم والعودة إلى الجامعة و..

– يا للكرم!

تجاهل الدكتور الربيعي سخريته بينما يستطرد :

– سأشرف بنفسي على نيلك لدرجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف وسأمنحك مليوني دولار بالإضافة إلى ذلك

– والمقابل يا دكتور؟ .. لا تقنعني أنه قد نبت فجأة ضمير بداخلك

– ما المقابل الذي يمكنني الحصول عليه في رأيك؟

– لقد كنت أراهن نفسي بأنك ستأتي إلي منكسرا ذليلا

هتف به في غضب قائلا:

– ماذا تقول؟

– لقد سرقت مادتي وحللتها وعرفت مكوناتها ولكن جشعك ورغبتك في المجد والشهرة والمال جعلك تتسرع بالإعلان عن الابتكار العظيم على الملأ وتنسبه لنفسك قبل أن تحاول تصنيعه بنفسك ولما حاولت فشلت ولم يتم التفاعل .. هل تدري لماذا يا دكتور؟

قال في لهفة:

– لماذا يا ابني؟

– لأن التفاعل لا يتم إلا في وجود عامل محفز وشروط صعبة للتفاعل لن تخطر على بالك خاصة وأن الرمال خاملة للغاية وصعبة التفاعل

– وما هي تلك الشروط يا ابني؟

– هذا هو السر الذي لا يعرفه سواي .. وهذا ما أوقعك في ورطة .. سينفضح أمرك فماذا تفعل؟ .. تأتيني بعرض يسيل له لعابي ، أليس كذلك؟

– لن أكابر يا ابني فقد أصبت كبد الحقيقة

– وهل تتوقع مني أن أقبل ذلك العرض الغبي؟

– ألا تريد استعادة حريتك وحياتك؟

– سأستعيدهما بك أو بدونك يا دكتور

– تأكد أنها فرصتك الأخيرة .. إنني أنتظر ردك على الفور

انتصب بهاء واقفا عن مقعده واقترب منه وضم قبضته وكال له لكمة مفاجئة أودعها كل قوته بينما يقول:

– هاك ردي يا دكتور

تدفقت الدماء من أنف الدكتور الربيعي الذي أخرج منديله ووضعه على أنفه محاولا إيقاف النزيف وما أن نجح في ذلك حتى قال:

– سأتركك ليومين يا ابني فقد يعود إليك رشدك

– ولو تركتني لعامين فلن أغير رأيي أبدا

– بم يفيدك الرفض؟

– يكفيني أن أرى الذل في عينيك بينما تشهد انهيار سمعتك العلمية

– ولكنها ستكون فضيحة لمصر كلها .. صدقني هناك من يروج إشاعة بأن علماء مصر أفاقون مخادعون

– وماذا يهمني في ذلك؟

– ألا تهتم لسمعة بلادك؟

– بلادي التي أهدتني السجن والعار والفضيحة؟

– ألا تهتم بالعودة إلى حياتك؟

– أين حياتي ؟ لقد أضعت حياتي .. أضعتها تماما يا رجل

* * *

طرق المقدم شريف زيدان أحد أكفأ ضباط المخابرات المصرية باب مكتب مدير المخابرات المصرية وانتظر حتى سمعه يدعوه للدخول ..

– تفضل

و ما أن دلف إلى الغرفة حتى سمع الأخير يرحب به ..

– مرحبا يا سيد شريف

– هل طلبتني يا سيادة المدير؟

– نعم

ثم أشار إلى مقعد أمامه بينما يقول:

– تفضل بالجلوس

جلس المقدم شريف بينما يتمتم:

– أشكرك

– سأكلفك بمهمة في غاية الخطورة

– خيرا يا أفندم؟

– هل سمعت عن الدكتور الربيعي؟

– ومن لم يسمع به يا أفندم؟

– إنه فخر لمصر والمصريين .. فخر لنا جميعا

– بالطبع فقد رفع رؤوسنا عالية فوق هامات الجميع

– يبدو أن هناك من يستكثر علينا فرحتنا يا سيد شريف

تجهم وجهه بينما يقول:

– هل حدث مكروه للرجل لا سمح الله؟

– ليس بعد يا سيد شريف

– ماذا تعني يا أفندم؟

– أعني أن هناك خطرا رهيبا يحيط بالرجل

– أي خطر ذاك؟

– منذ أعلن الرجل عن ابتكاره في المؤتمر الصحفي الذي عقده في جامعة القاهرة حتى كلفت رجالنا بتشديد الرقابة على مداخل البلاد ومخارجها خشية التحركات العدائية من بعض الدول إذ كنت أتوجس خيفة عليه .. فهل تدري ماذا كانت النتيجة؟

– ماذا كانت يا أفندم؟

– لقد رصد رجالنا حتى الآن خمسة من أقوى رجال المخابرات لخمس دول مختلفة وهؤلاء هم المعروفون لدينا من مصادرنا السرية أضف إليهم العديد ممن لا نعرف بالطبع .. هل تدري ماذا يعني ذلك يا سيد شريف؟

– يعني أن الرجل في خطر داهم

– بالضبط يا سيد شريف

ولكن لماذا لم نرفض دخولهم أو نعتقلهم بالمطار؟

– كان ينبغي أن نتصرف وكأننا لا نعرفهم وإلا انكشف عملاءنا في أجهزة مخابراتهم كما أن اعتقالنا لرعايا دول أخرى دون دليل على ارتكابهم لأي مخالفة سيستثير العالم ومنظمات حقوق الإنسان كلها ضدنا.. ثم إن إبعاد من نعرفهم لا يعني أن الخطر قد زال عن الدكتور الربيعي فهناك الكثيرون ممن لا نعرف

– هذا صحيح للأسف

– إننا بالطبع قد عينا له حراسة سرية وبالرغم من أنهم على أعلى مستوى من الحرفية إلا أنني لا أثق بهم .. إنني أضع ثقتي كاملة بك يا سيد شريف

– أشكرك على تلك الثقة يا أفندم

– على الرغم من التدريبات المكثفة التي يتلقاها هؤلاء إلا أنه يسهل خداعهم لذا ستكون أنت الرأس المدبر لما قد يستجد من أمور .. تلك هي مهمتك

– وأنا مستعد يا أفندم

– ولتبدأ مهمتك فورا

واستطرد قائلا في حزم:

– فالوقت ليس في صالحنا .. ليس في صالحنا على الإطلاق يا رجل

* * *

"أما أخبرتك أنني لا أريد رؤية وجهك القبيح ثانية؟"

صرخ بهاء بتلك العبارة في وجه الدكتور الربيعي في قوة زلزلت كيان الرجل مما دفعه إلى أن يسقط إلى مقعد مجاور له ويدفن وجهه بين راحتيه بينما يقول في أسى:

– لماذا تعذبني يا ابني؟

– أنا؟ .. أنا الذي يعذبك؟

رفع رأسه ينظر نحوه بينما يقول:

– وتعذب نفسك أيضا

– لا شأن لك بعذابي

– لماذا لا تخلصني وتخلص نفسك من العذاب؟

قال ساخرا:

– لقد صار طعم العذاب مستساغا في فمي فصرت أستمتع به

– أما زلت على رأيك؟

– ولن أغيره أبدا

– ولكنها فرصتك الأخيرة

– لا تحاول!

– بم سيفيدك ضياع خمس سنوات من عمرك في السجن؟

– هذا شأني

– بم سيفيدك وصمي ووصمك بالعار والفضيحة؟

– الفضيحة سبق وأن وصمتني بقي أن أراك تعاني كما عانيت

– أرجوك يا ابني أنقذني من تلك الورطة حتى أستطيع إنقاذك معي

– هذه الورطة أنت من تسبب بها

ترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول:

– لقد أخطأت ولكنني ندمت على ما فعلت

وانتصب واقفا وسار نحو بهاء ثم أمسك بإحدى يديه فجأة وراح يقبلها بينما يستطرد :

– أرجوك يا ابني .. ارحمني أرجوك

أبعد بهاء يده عنه في قسوة بينما يقول:

– أنت لا تستحق الرحمة .. لقد دمرتني بلا رحمة

أمسك بيده الأخرى يقبلها بينما يقول:

– اغفر لي يا ابني

أشاح بوجهه بعيدا وجذب يده بعيدا عنه بينما يقول:

– لا يغفر الذنوب إلا الله

– هل أصبح قلبك من حجر؟

– حجر من صنع يديك يا دكتور

– إنني في النهاية أستاذك

– تلك المهنة أشرف من أن تضم أمثالك

– ألا تذكر لي جميلا واحدا صنعته من أجلك؟

– أي جميل منهم تقصد؟ .. سرقة ابتكاري أم فصلي من الجامعة؟ .. أم لعلك تقصد سجني وضياع أسرتي وحياتي؟ .. لقد دمرتني تماما .. هل هذا هو الجميل الذي تقصد يا دكتور؟

– يمكننا إصلاح كل شيء

– كيف يا دكتور؟

– الأمر مازال بيدك يا ابني

– لا شيء بيدي يا دكتور

– فلتقتلني إذن وتريحني من العذاب والفضيحة

– كيف أقتلك وأنا أراك تموت أمامي ألف مرة؟ .. سأتركك حتى تتجرع كأس العذاب كاملا وبعدها أعدك أن أفعل

– لقد أصبحت وحشا

– صنيعة يديك يا أستاذي

– فكر ثانية يا ابني فقد تغير رأيك

– مستحيل .. ولو بعد مائة عام

– أرجوك يا ابني!

– أنا الذي أرجوك .. لابد وأن تخرج من هنا فلم أعد أحتمل رائحتك النتنة .. أخرج ولا تعد! .. لا تعد أرجوك!

* * *

اقترب رشدي السويفي من بهاء الذي يقف وحيدا في أحد جوانب فناء السجن وربت على أحد كتفيه بينما يقول:

– أما زلت مكتئبا يا رجل؟

– الإكتئاب كلمة أبسط من أن تصف حزني يا صديقي

جلس السويفي على رصيف خلفه بينما يقول:

– استرح يا صديقي .. استرح

جلس بهاء إلى جواره بينما يتلفت حوله ويتمتم قائلا:

– لم يعد بدنياي راحة يا صديقي

– هل ضايقك أحد هؤلاء المساجين الرعاع أم ..؟

– أطرق بهاء برأسه نحو الأرض بينما يقاطعه قائلا في حزن:

– لا يا صديقي .. إنهم يتحاشونني تماما وكأنني لست بموجود في عالمهم

نهض واقفا من مكانه بينما يقول:

– سأجمعهم ليقبلوا رأسك و ..

نهض بهاء من جلسته وجذب أحد ذراعيه بينما يقاطعه قائلا:

– لا داعي يا صديقي .. كفاني ما أراه من نظرات مقت في عيونهم

– سأفقأ لك عيون الجميع و..

– لا داعي يا صديقي .. كفاني أمنت شرهم بفضلك

ربت السويفي على أحد كتفي بهاء بينما يقول:

– يجب أن تعذرهم .. إنهم لا يعلمون الحقيقة

– يوما ما ستنكشف الحقيقة وستعلن للجميع

– وذلك النذل الربيعي لقد سمعت أنه زارك .. ماذا كان يريد؟

– إنه يريد سر التركيبة

– والمقابل؟

– لقد وعدني بمبلغ كبير من المال والخروج من السجن

– وسينسبها لنفسه بالطبع وستختفي الحقيقة للأبد

– الحقيقة أصبحت عارا ولا يمكن الاعتراف بها

– ألم تفكر بقبول عرضه؟

– لا مناص لي من القبول ولكن ..

– ولكن ماذا؟

– سأستمر بالضغط عليه حتى أصل إلى نهايته

– إنني لا أوافقك .. فلتصر على موقفك حتى النهاية

– لقد فكرت كثيرا ولكن الجميع ضدي .. لن يصدقني أحد

– ولكن سر التركيبة معك وهي خير دليل وبرهان

– لقد سدوا آذانهم .. لا يريدون أن يسمعونني

– سأقف إلى جوارك وسنعلن الحقيقة

– إنني أقدر موقفك يا صديقي ولكننا مجرد سجناء .. كيف سنقف أمام ذلك التيار الجارف

– دوام الحال من المحال يا صديقي

– ماذا تعني؟

– أعني أن سجين اليوم قد يكون طليق الغد يا صديقي

واستطرد قائلا في حماس:

– وسترى ماذا سيفعل السويفي .. سترى ماذا سيفعل السويفي يا صديقي

* * *

جلس الدكتور الربيعي إلى مقعد القيادة في سيارته المتوقفة أمام كلية العلوم بجامعة القاهرة ولم يدر محركها ولكنه اتكأ برأسه إلى عجلة القيادة .. أحس بأنه يختنق فراح يخفف من ضغط رابطة عنقه ولكن ذلك لم يخفف من شعوره بالإختناق مما دفعه إلى أن ينتزعها ويلقي بها إلى المقعد المجاور .. كان ما يخنقه ينبع من داخله .. ينبع من ضميره الذي راح يهاجمه في عنف وشراسة

ماذا فعلت بنفسك يا دكتور؟ ..

لماذا الطمع؟ ..

لديك من الأبحاث ما هز العالم وقلب نظرياته رأسا على عقب ..

لديك من المؤلفات ما يحسدك عليه جميع زملائك ..

لماذا طمعت فيما لا يخصك؟ ..

انك تستحق ما سيحدث من عار وفضيحة ..

بل تستحق أكثر من ذلك بكثير ..

سيحتقرك الجميع ..

لن يمد لك أحدهم يد العون أبدا ..

سيغرسون مخالبهم في جسدك ..

سينهشون لحمك ويقطعونك إربا ..

إنه جزاء عادل على ما اقترفت يداك ..

إنها عدالة السماء ..

إنك مجرم ..

بل وأكثر من مجرم ..

إنك وحش ..

بل وأبشع من وحش ..

لقد دمرت حياة إنسان لم يقترف ذنبا سوى أنه وثق بك ..

لقد ظلمت المسكين ..

دمرت عالمه ..

هدمت آماله وأحلامه ..

قضيت على مستقبله بلا رحمة ..

سحقته لترتفع فوق أشلائه ..

وماذا كانت النتيجة؟ ..

هل ارتفعت؟ ..

هل أصبحت عظيما؟ ..

لقد صنعت من نفسك وحشا بشعا ..

وصمت نفسك بالخسة والعار ..

ترى هل ستهنأ بنوم بعد الآن؟ ..

ها هي الكوابيس تطاردك ..

ها هو الأرق يلاحقك ..

لقد فقدت سلامك إلى الأبد ..

لن تلبث جريمتك أن تنكشف ..

سيرى الجميع الوحش الذي يعيش بداخلك ..

لن يرحمك أحدهم ..

ستشير عيونهم إلى جريمتك ..

هل سيمكنك تحمل نظراتهم؟ ..

ماذا فعلت بنفسك أيها التعس؟ ..

لقد ألقيت بنفسك في ورطة لا مخرج لها ..

ألقيت بنفسك في هوة عميقة القرار ..

لابد من حل ..

ولكن كيف؟ ..

كيف؟ ..

إلهمني يا إلهي! ..

أرجوك يا إلهي! ..

لقد أخطأت بالفعل ..

ولكن ما ذنب أولادي حتى يتحملون العار والفضيحة من بعدي؟ ..

ترى كيف سيرونني بعد أن تتفجر القضية؟ ..

لقد ربيتهم على المثل والمبادئ ..

أين كان عقلي؟ ..

كيف فعلت ذلك بنفسي؟ ..

يا لشيطان العظمة ! ..

لقد غيب عقلي ومبادئي وبدل أخلاقي ..

لابد وأن أنهي عذابي ..

لابد أن أنهي عذابي بيدي ..

الانتحار هو الحل ..

الحل الوحيد

* * *

اخترق المقدم شريف زيدان الطوق الأمني الذي يفرضه رجال الأمن حول أحد مباني كلية العلوم بجامعة القاهرة ولكن أحد الجنود اعترض طريقه فهتف به قائلا:

– أنا المقدم شريف زيدان

ارتبك الجندي قليلا إلا أنه نجح في السيطرة على ارتباكه بسرعة وراح يؤدي التحية العسكرية بينما يقول:

– تمام يا أفندم

– من هو الضابط المسئول عن العملية؟

– إنه الرائد كمال فؤاد يا أفندم

– أين أجده؟

– إنه في الطابق الرابع

– أريد مقابلته على الفور

أشار الجندي إلى الداخل بإحدى راحتيه بينما يقول:

– تفضل يا أفندم

خطا المقدم شريف نحو مدخل المبنى ثم واتجه نحو السلم وراح يرتقي درجاته في سرعة وما أن وصل إلى الطابق الرابع حتى نظر إلى الجندي الواقف هناك قائلا:

– أين هو الرائد كمال فؤاد بالضبط؟

– في الحجرة الأخيرة إلى اليمين

راح يعبر الممر الطويل وتوقف أمام الحجرة و مد يده يطرق بابها ثم فتحه في هدوء ودلف إلى الداخل واقترب من الرائد كمال بينما يقول:

– المقدم شريف زيدان من المخابرات العامة

صافحه الرائد كمال فؤاد بينما يقول:

– مرحبا بك يا أفندم

– ستتسلم المخابرات القضية رسميا

ثم مد يده نحوه يسلمه إحدى الأوراق التي يمسك بها بينما يستطرد قائلا:

– وهذا هو القرار

أمسك الرائد كمال بالورقة في دهشة بينما يقول:

– ولكن ما شأن المخابرات بقضية قتل عادية؟

قال مستنكرا:

– أتسمي قضية خطيرة كتلك قضية قتل عادية؟

قال في ارتباك:

– كلنا نعلم أن المخابرات تعمل على قضايا الجاسوسية و ..

– أهكذا تحكم شرطتنا على الأمور؟ .. أ بهذه السطحية تفكرون؟

– سطحية؟

– ألا تدري من هو ذاك الرجل؟

– إنني أقصد أن ..

قاطعه قائلا في حزم:

تقصد أو لا تقصد .. لقد انتهت علاقتك بالقضية

ضغط الرائد كمال أسنانه في غضب إلا أنه تمالك نفسه سريعا وراح يؤدي التحية العسكرية أمام المقدم شريف ثم انصرف تاركا إياه مع جثة الدكتور الربيعي التي كانت غارقة ..

في دمائها

* * *

– إذن فقد فشلت مهمتك يا سيد شريف

أطرق المقدم شريف برأسه نحو الأرض بينما يقول في أسى:

– قبل أن تبدأ للأسف يا أفندم

– لقد سبقنا الأعداء وتمكنوا من القضاء على فرحتنا في مهدها

– ليت الأمر كذلك يا أفندم

– ماذا تعني؟

– لقد جاءتنا الضربة من حيث لا نتوقع

– كيف؟

– لقد انتحر الدكتور الربيعي

– ماذا تقول؟

– إنها الحقيقة يا أفندم

– مستحيل

– ولكن المستحيل قد حدث

– لا يمكنني تصديق ذلك أبدا

– كل الدلائل تشير إلى ذلك وتؤيده يا أفندم

– إنني أكاد أجن .. ما الذي يدفعه للانتحار بينما هو في قمة مجده وأنظار العالم تتجه إليه

– هذا ما يحيرني بالضبط

– ولكن انتحاره يعني ..

– ماذا يعني يا أفندم؟

– يعني أن ما يتردد صحيح وليس مجرد إشاعات و ..

– تقصد ما يتردد بأنه أفاق ومخادع؟

– بالضبط

– إنها فضيحة لنا بكل ما في الكلمة من معان

– إنها فضيحة لكل علمائنا

– بل إنها فضيحة لمصر كلها

وصمت برهة ثم استطرد قائلا في حزن:

– لا أدري ماذا أقول لسيادة الرئيس .. لقد كان يعقد على الدكتور الربيعي آمالا كبيرة لرفعة البلد وتقدمها

– إنها مشيئة الله يا أفندم

– هل تأكدتم تماما من مسألة انتحاره؟

– للأسف يا أفندم

– ألا يمكن أن تكون الأدلة ملفقة للإضرار بسمعتنا؟

– لقد بحثنا هذا الاحتمال بدقة و ..

– وماذا وجدتم؟

– وجدنا أنه مستحيل

– لماذا؟

– لأن الأبواب كانت مغلقة من الداخل

– وماذا عن النوافذ؟

– النوافذ محاطة بقضبان حديدية لا تسمح بمرور جرذ صغير وقد وجدت سليمة لا أثر بها لكسر أو خدش

– ألا يحتمل أن يكون أحدهم قد أطلق عليه الرصاص من خلف تلك القضبان؟

– تقرير الطبيب الشرعي يؤكد أن الوفاة قد حدثت نتيجة رصاصة أطلقت عبر تجويف الفم واخترقت المخ متسببة في نزيف داخلي بأنسجته من مسافة سنتيمترات

– إذن فمسألة انتحاره مؤكدة

– هناك أدلة أخري لا تقبل الشك تؤكد ذلك

– ما هي؟

– هناك اعتراف بخط يد الدكتور الربيعي يؤكد أنه انتحر

– هل تأكدتم من خطه؟

– بما لا يدع مجالا للشك

– ربما قد أجبر على كتابته

– هناك أيضا أداة الجريمة يا أفندم

– ماذا عنها؟

– الجريمة تمت بمسدس مرخص باسم الدكتور الربيعي ويحمل بصماته

– يبدو أنه لا مجال للشك مع كل تلك الأدلة

– للأسف يا أفندم

– يبدو أنه كان أفاقا بالفعل

– ولكننا رأيناه جميعا بينما يجرب وقوده أمام الجميع عبر الفضائيات

– إذن فماذا حدث؟ .. لماذا ينتحر ويترك لنا إرثا من الظن والشكوك؟ .. لماذا يصمنا بالعار والفضيحة؟ .. لماذا؟

– إنني أكاد أجن

انتفض جسديهما حين ارتفع صوت رنين الهاتف فجأة وأسرع مدير المخابرات يلتقط السماعة ويقربها من أحد أذنيه وما أن سمع صوت محدثه حتى نهض عن مقعده بينما يقول:

– مرحبا يا سيادة الرئيس

استمع إلى الرئيس لثوان ثم قال في حزن:

– للأسف يا سيادة الرئيس فأخبارنا لا تسر

أنصت قليلا ثم راح يشرح له كل شيء ..

بالتفصيل

* * *

" لقد اغتالت قوى الشر الآثمة فرحة الشعب المصري بأكمله .. اغتالت رجلا عقدت عليه الأمة جل آمالها وطموحاتها .. انتزعت الفرحة من قلوب الجميع انتزاعا .. اغتالت عالما جليلا أخلص لهذا الوطن ومنحه نفسه وروحه وعقله .. يعتصر الألم قلوبنا جميعا ونحن نعلن عن مصرع عالمنا الجليل الدكتور الربيعي .. ولكن الدكتور الربيعي لم يمت .. إنه يعيش في ذاكرة كل منا .. إننا نعلنها بوضوح من هنا .. لن ننساك يا دكتور .. ستحيا بداخلنا إلى الأبد .. إلى الأبد "

أطفأ مدير المخابرات جهاز التلفاز في مكتبه بينما يقول:

– هذا بالضبط ما نريد

– هل ننشر الأكاذيب يا أفندم؟

– السياسة هي فن الممكن يا سيد شريف

– وهل تلك الأكاذيب ما تحقق فن الممكن؟

– ماذا بأيدينا ولم نفعل؟

– يمكننا أن نعلن الحقيقة مهما كانت صعبة

– لن ننال سوى فضيحة مدوية بإعلاننا الحقيقة .. فضيحة ستمس سمعة بلادنا وستفقد علماؤنا مصداقيتهم

– يبدو أنه ليس أمامنا غير ذلك بالفعل

– لقد وضعنا الدكتور الربيعي – رحمه الله – في موقف لا نحسد عليه

– هذا صحيح للأسف

– هذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من المأزق وليس هذا فحسب إنما الفوز بعطف العالم أيضا

– نعم .. نعم

– ألم تعثروا على عينة من تلك المادة التي ابتكرها الدكتور الربيعي؟

– للأسف يا أفندم

– ماذا عن خزان الوقود في سيارته؟

– لقد كان ممتلئا بالبنزين العادي

– إذن فقد دفن الرجل سره معه

– للأسف يا أفندم

– ألم تتوصلوا إلى سر انتحاره بعد؟

– تحرياتنا مازالت مستمرة يا أفندم

– أريد أن أعرف النتائج بمجرد توصلكم إليها

– بإذن الله يا أفندم

– أتدري أكثر ما يؤثر في نفسي يا سيد شريف؟

هز المقدم شريف رأسه مستفسرا دون أن ينبس بكلمة فتابع مدير المخابرات حديثه قائلا:

– ذلك الحزن الرهيب الذي خيم على وجه الرئيس

– لقد كان يعقد على الدكتور الربيعي آمالا كبيرة

– لم يكن يتوقع الفضيحة من حيث توقع المجد والعزة لهذا البلد

هز رأسه في أسى قائلا:

– ومن كان يتوقع؟

– لقد كان يفخر بالرجل في كل المحافل الدولية منها والمحلية

– لقد كنا جميعا نفخر به

– ولكن الطعنة كانت مفاجئة من الدكتور ..

مفاجئة تماما

* * *

حملق مأمور السجن في وجه بهاء الذي يقف أمامه في حجرة مكتبه وفغر فاه في ذهول قبل أن يقول مزمجرا:

– ماذا تقول يا رجل؟

– صدقني يا سيدي!

– وماذا يجبرني على تصديقك؟

– تلك هي الحقيقة .. صدقني أرجوك!

صرخ به في حنق:

– أما زلت تواصل خداعك؟

– أقسم لك إنها ..

انفجر في وجهه صارخا:

– لا تقسم يا رجل فلن أصدقك

– ولكن ..

قاطعه صارخا في عنف:

– هل تظن أنك ستتملص من جريمتك بتلك الألاعيب السخيفة؟ .. إنه حكم قضائي وستنفذه

وصمت لبرهة قبل أن في تهكم قائلا:

– ستنفذه ولو كنت أنت من إخترع الديناميت

– صدقني ..!

– صه أيها الغبي وإلا أمرت بجلدك و..

قاطعه بهاء متحديا:

– لن أسكت حتى أستعيد حقي .. لن أسكت قبل أن يصل صوتي إلى أعلى مستوى .. سأوصل صوتي إلى عنان السماء

اقترب المأمور من بهاء وأمسك بتلابيب بدلة السجن التي يرتديها بينما ضغط أسنانه في غضب قائلا:

– أما زلت مصرا على تشويه سمعة الرجل حتى بعد وفاته؟

– إنني لا أشو..

قاطعه قائلا في عنف:

– ماذا تقصد بأفعالك تلك إذن؟

واذدرد لعابه ثم استطرد قائلا:

– ولو كنت أنت فعلا من ابتكر تلك المادة فهل يعفيك ذلك من تهمة الشروع في قتل الدكتور؟

– صدقني يا سيدي لقد سرق ..

دفعه المأمور مسقطا إياه أرضا بينما يقول غاضبا:

– إياك أن تكرر ذاك الكلام ثانية

وصمت لبرهة قبل أن قائلا في مقت واضح:

– هل تظن خائنا مثلك يمكنه تشويه سمعة الرجل؟ .. لن أسمح لك بالكلام عنه ثانية .. إنه بطل من أبطالنا ورمز من رموز مصر

نهض بهاء من سقطته وأخرج قطارة بلاستيكية صغيرة مليئة بسائل رمادي قاتم كان يخفيها بين طيات ملابس السجن واقترب من المأمور مادا اليه يده بها بينما يقول:

– سيدي .. إليك الدليل

التقط المأمور القطارة من يده دون أن ينظر إليها وألقى بها من النافذة إلى فناء السجن بينما يصرخ به قائلا:

– أقسم بالله لو لم تغرب عن وجهي الآن .. أقسم أن أقتلك

وأشار بسبابته نحو الباب بينما صارخا:

– أغرب عن وجهي يا رجل .. أغرب عن وجهي

*** * ***

جلس رشدي السويفي على الرصيف الذي تعود الجلوس عليه مع بهاء في فناء السجن وإلى جواره جلس بهاء حزينا بينما يقول الأول بصوت أقرب إلى الهمس:

– أما حذرتك يا صديقي؟

أحس بهاء بغصة في حلقه تمنعه من الكلام فتنحنح قبل أن يقول هامسا:

– لم أكن أتصور ما حدث

– إنهم لا يصدقون أمثالنا يا صديقي

انحدرت دمعة عبر مقلتيه بينما يهمس:

– ليتهم يسمحون لنا بمجرد الكلام

ومسح دموعه بأطراف أصابعه بينما يستطرد :

– لقد سدوا آذانهم حتى لا يسمعوا

– لعلك تصدقني الآن و ..

قاطعه قائلا في اصرار:

– كان لابد من المحاولة

– إنهم أوغاد لا يسمعون سوى صوت أنفسهم

تنهد بهاء قبل أن يقول:

– إنك على حق يا صديقي

– أما أريتهم الدليل؟

ضغط بهاء على اسنانه في غضب بينما يقول:

– حتى الدليل الواضح لم يعد يقنعهم .. إنهم حتى لا يريدون رؤية أي دليل

– ماذا تعني؟

تلفت حوله في خوف قبل أن يقول:

– الوغد .. لقد ألقى بالدليل من النافذة

انتفض رشدي السويفي مذعورا بينما يهتف قائلا:

– هل ألقى بالقطارة؟

وضع بهاء احدى يديه على فم السويفي وتلفت حوله بينما يقول:

– اخفض صوتك يا رجل

نهض السويفي من مجلسه جاذبا يد بهاء فأنهضه معه بينما يقول:

– هيا يا صديقي؟

نظر بهاء نحوه وقال هامسا:

– إلى أين؟

– لابد وأن نجد تلك القطارة

– لماذا؟

نظر اليه في دهشة قائلا:

– ألا تريدها؟

– وما حاجتي إليها بعد الآن يا صديقي؟

– هل يمكنك صنع غيرها؟

– بالطبع يمكنني ولكن ليس بإمكانات السجن تصنيعها يحتاج أجهزة ومعدات وتفاعلات

أشار إلى صدره بينما يقول:

– أنا أريد تلك القطارة إذن

قال بهاء في دهشة:

– وفيم تريدها؟

أجابه ساخرا:

– سأقود بها سيارتي في السجن

– ليس هذا وقت للمزاح يا صديقي

ربت على كتفه بينما يقول:

– ألا تريد حقك يا صديقي؟

أومأ برأسه موافقا بينما يقول:

– ولكن كيف؟

– ربت على كتفه ثانية بينما يقول:

– لا تقلق بالك يا صديقي .. هذا شأني أنا

وصمت لبرهة قبل أن قائلا:

– والآن هيا

– ولم العجلة؟

– ألا يحتمل أن يجد أحدهم القطارة و ..

– حسنا .. هيا بنا

وانطلق كلاهما جنبا إلى جنب بخطى أقرب إلى العدو نحو حجرة المأمور وبحثا أسفلها ومضى الكثير من الوقت قبل أن يعثر عليها السويفي فلمعت عيناه وكأنما عثر على كنز وأسرع يلتقطها ..

– ها هي .. لقد وجدتها

وأسرع يخبؤها في جيب سترة السجن التي يرتديها ثم التفت إلى بهاء الذي كان قد اقترب منه كثيرا وربت على كتفه بإحدى راحتيه بينما يقول:

– والآن أقسم أن أستعيد حقك يا صديقي

وضغط مقاطع كلماته بينما يستطرد :

– أقسم أن أستعيد حقك كاملا .. أقسم يا صديقي

* * *

ألقى رشدي السويفي بنفسه في حضن بهاء في زنزانتهما المشتركة وترقرقت الدموع في عيني كلاهما .. كانا يودعان بعضهما البعض في تلك الليلة .. ليلة الإفراج عن السويفي بعد أن قضى مدته و ..

– هل ستتركني يا سويفي؟

ربت السويفي على أحد كتفيه بينما يقول:

– ليت الأمر بيدي يا صديقي

– ولو كان بيدك هل كنت ستظل سجينا لأجلي

– رقبتي فداؤك يا صديقي

ربت بهاء على كتفه بينما يقول:

– دمت لي يا صديقي

قال السويفي في تأثر:

– بقيت أشهر ست وستلحق بي يا صديقي

– ليتني أموت فأستريح

– لست أرى سببا واحدا ليأسك يا صديقي

نظر بهاء في عينيه وبدا الحزن في صوته بينما يقول:

– أحقا يا صديقي؟ .. ألا ترى سببا واحدا؟

وترقرقت دموعه في عينيه بينما يستطرد قائلا:

– هل تخبرني لمن سأخرج من هنا؟

– ستخرج لحياتك .. لمستقبلك

– أي حياة وأي مستقبل يا رجل؟ .. لقد ضاعت حياتي وانتهى مستقبلي

– لتخرج لأهلك وأحبائك يا رجل

تنهد قبل أن يقول في أسى:

– أين أهلي؟ .. لست أرى لي أهلا .. لقد كانت أمي هي كل أهلي ولقد قتلتها بتصرفاتي

ربت السويفي على إحدى كتفيه بينما يقول:

– وما ذنبك يا رجل؟ .. لا تحمل نفسك فوق طاقتها

– ليتني تمالكت أعصابي في غضبي .. لقد حملت أمي فوق طاقتها

– لا تبالغ يا رجل .. إنه قضاء الله

– ألم تمت بجلطة دماغية حزنا وحسرة علي؟

– إنه أجلها .. وسيعوضك الله عنها بحب أكبر و..

قال في أسى وحسرة:

– لقد عوضني .. عوضني بزوجة أحببتها أكثر من نفسي فباعتني وتخلت عني

– لقد تسرعت أنت وطلقتها

– لقد طلبت الطلاق .. فهل أرغمها على انتظاري؟

– كان ينبغي أن تتمسك بها

– وهل أرغمها على حبي؟

– لقد كانت تعشقك وبإعتراف لسانك

– لماذا طلبت الطلاق إذن؟

– ناقصات عقل ودين

– لماذا تزوجت بعد إنقضاء العدة مباشرة في رأيك؟

وترقرقت الدموع في عينيه بينما يستطرد :

– لماذا أسقطت نفسها وقتلت إبني؟ .. إنها خائنة .. خائنة

– لا تظلمها يا صديقي .. ولتقدر ظروفها

– وضع إحدى راحتيه فوق صدره بينما يقول حانقا:

– وأنا من يقدر ظروفي؟ .. من يقدر آلامي؟ .. خمس سنوات من الألم .. خمس سنوات من العذاب .. الجميع تخلوا عني .. الجميع ابتعدوا عني .. كل العيون أتهمتني بالخيانة وحكمت علي بالموت

ربت السويفي على أحد كتفه بينما يقول:

– إهدأ يا صديقي .. لقد مرت سنوات أربع ونصف السنة وبقي القليل

– بقي ستة أشهر .. بقي مائة وثمانون يوما واليوم من دونك يا صديقي بعام

واذدرد لعابه قبل أن قائلا:

– فهل بقي في العمر ما يكفي؟ .. هل بقي ما يكفي يا صديقي؟

* * *

خلت الشوارع من المارة في منطقة المعادي بالقاهرة بسبب موجة الأمطار الغزيرة والبرد القارس التي تضرب القاهرة في شهر فبراير من كل عام .. توقفت سيارة فان صغيرة على مقربة من أحد البنوك وهبط منها نصف دستة من الملثمين اشار أحدهم – يبدو أنه زعيمهم – إلى آخر بإحدى راحتيه فأسرع الرجل نحو تابلوه التليفون الذي يغذي المنطقة وفصل الحرارة عن المنطقة بأكملها ثم انضم إلى زملائه الذين كانوا يتسللون نحو حراس البنك في الداخل والخارج واستعملوا معهم مناديل تحوي مادة مخدرة وانطلق أحدهم نحو حجرة المدير يقتحمها ويصوب مسدسه إلى رأسه .. كان كل فرد من أفراد العصابة يؤدي دورا مرسوما له بدقة بالغة ولم تمضي دقائق حتى كان حراس البنك جميعا يرقدون على الأرض مغشيا عليهم .. وفجأة أخرج أفراد العصابة مسدساتهم و ..

– كل في مكانه! .. ليرفع الجميع كلتا يداه فوق رأسه

تملك الرعب من الجميع وساد الهرج والمرج المكان وانطلقت عدة صرخات من حناجر رواد البنك وموظفيه

هتف زعيم العصابة برجاله قائلا:

– أريد الجميع هنا في ردهة البنك

أسرع رجاله ينفذون أوامره وما هي إلا لحظات حتى كان الجميع في الردهة روادا وموظفين وكل منهم يرفع يداه فوق رأسه بينما يصوب زعيم العصابة مسدسه نحوهم في تحفز واضح

– فلينبطح الجميع أرضا

سرت همهمات بين الجميع وانبطح بعضهم أرضا في رعب بينما بدا التردد على البعض فصرخ الزعيم بهم قائلا في صرامة:

– فلتنفذوا أوامري فورا .. فلست أريد قتل أحدكم

بدا الرعب في عيون الآخرين وسرعان ما تغلبوا على ترددهم وانبطحوا أرضا وصرخ الزعيم بهم قائلا:

– سأقتل أول من يجرؤ على رفع رأسه منكم دون رحمة

ساد السكون تماما بعد أن القى الزعيم بعبارته والتفت الرجل نحو رجاله الذين كانوا قد تجمعوا خلفه قائلا:

– البنك تحت تصرفكم يا رجال

وابتسم ابتسامة مقيته قبل أن :

– أريد كل النقود والأولوية للدولار

أسرع رجاله ينقلون أموال البنك إلى حقائبهم ولم تمض دقائق حتى أنجزوا مهمتهم كاملة وتجتمعوا خلف زعيمهم ثانية فأومأ لهم برأسه بينما يقول:

– إلى السيارة يا رجال

أسرع الرجال بحقائبهم نحو السيارة تحت الأمطار الغزيرة المنهمرة وألقوا حقائبهم في صندوقها الخلفي واستقر اربعة منهم مع الحقائب وأغلقوا بابها بينما احتل أحدهم مقعد القيادة وأدار محرك السيارة ثم أدار عينيه يبحث عن الزعيم الذي ظهر في ذات الوقت أمام البنك بينما يعدو نحو السيارة حاملا مسدسه وما ان اتخذ مقعده حتى انطلق سائقها وبأقصى سرعتها ولم يكد يفعل حتى سمع صوت سرينة إحدى سيارات الشرطة .. التفت الزعيم نحو الخلف يرقب سيارة الشرطة التي تطاردهم بينما يقول:

– لست أعلم من أبلغ هؤلاء الأوغاد؟ .. لقد قطعنا الحرارة عن المنطقة .. بأكملها

* * *

" للأسف .. لقد هربوا يا سيادة العقيد"

نطق الرائد كمال فؤاد تلك العبارة بصوت خافت بينما يطرق برأسه نحو الأرض

ضرب العقيد خالد الشيمي سطح مكتبه بإحدى راحتيه بينما يهتف مستنكرا:

– ماذا تقول أيها الرائد؟

– لقد هربوا و ..

تصاعدت حدة الغضب في صوت العقيد الشيمي بينما يصرخ به مقاطعا:

– بهذه البساطة؟

– لم يكن الأمر بأيدينا يا سيادة العقيد

– صاح في غضب:

– بيد من إذن؟

– ارجوك يا سيادة العقيد! .. لتهدأ قليلا حتى يتسنى لي شرح الأمر و..

قاطعه قائلا في عنف:

– الأمر لا يحتاج شرحا يا سيادة الرائد

– اسمعني أرجوك ..

قاطعه ثانية:

– إنه اهمال جسيم .. سأحولك إلى التحقيق و..

– صدقني يا سيادة العقيد .. لقد كانت سيارة اللصوص تسير بسرعة تفوق ضعف سرعتنا

بدا التفكير على وجه العقيد الشيمي وهدأت لهجته فجأة وجلس إلى مقعده بينما يقول:

– سيارة اللصوص تسير بسرعة تفوق سرعة سيارتنا؟

– بالضبط يا سيادة العقيد .. هذا ما حدث بالضبط

– لا أدري لماذا تتردد تلك الكلمات في أذني .. لقد سمعتها من قبل

والتفت نحو الرائد كمال بينما يقول:

– هل فحصتم مكان الجريمة؟

– البنك؟

– نعم

– لقد فحصنا المكان بكل دقة ولكنهم لم يتركوا لنا سوى آثار أقدامهم من جراء المطر

– ألا توجد أي بصمات تدلنا على أحدهم؟

– لقد كانوا يرتدون قفازات

– وماذا عن الحرس الخاص بالبنك؟

– جميعهم كانوا فاقدي الوعي على إثر تعرضهم لإستنشاق مادة مخدرة استخدمها اللصوص

– وماذا عن رواد البنك؟

– لقد استجوبنا الجميع ولم نجد لدى أحدهم ما يفيدنا .. لقد كان اللصوص ملثمين

– إذن فالقضية كما يبدو معقدة .. معقدة للغاية

* * *

اسرع الرائد كمال فؤاد يحث الخطا نحو مكتب العقيد الشيمي وطرقه عدة طرقات متتالية وما أن سمع الأخير يدعوه للدخول حتى فتح الباب واندفع نحوه مقتربا و ..

– تمام يا أفندم

أغلق العقيد الشيمي ملفا كان يطالعه ونظر نحوه بينما يقول:

– آت ما عندك يا رجل

قال في حماس:

– لقد توصلت إلى طرف خيط يا سيادة العقيد

انتقل الحماس إلى العقيد الشيمي وأشار بإحدى راحتيه إلى مقعد أمام مكتبه بينما يقول:

– إجلس يا سيادة الرائد .. تفضل بالجلوس

جلس الرائد كمال فؤاد بينما يغمغم بعبارات الشكر فبادره العقيد الشيمي قائلا:

– إنني أثق بك كثيرا .. لقد كنت متأكدا من أنك ستفعلها .. لقد كنت أراهن نفسي يا رجل

– ليتني أكون عند حسن ظنك يا سيادة العقيد

– هيا تكلم يا سيادة الرائد

تنحنح الرائد كمال وكأنه سيلقي محاضرة طويلة قبل أن يقول:

– لقد كدنا نجن يا سيادة العقيد حين كنا نطارد سيارة اللصوص .. لقد كان الموقف أشبه بسلحفاة قررت فجأة أن تطارد أرنبا غاضبا

– ألتلك الدرجة يا رجل؟

– بل وأكثر يا سيادة العقيد

وصمت لبرهة يلتقط أنفاسه قبل أن قائلا:

– عندما ذكرت لسيادتكم سيادة العقيد منذ يومين أن سيارة اللصوص كانت تسير بسرعة تفوق سرعة سيارتنا قلت لي بالضبط أن تلك العبارة تتردد في أذني

– بالضبط

– والغريب أنني لاحظت أن تلك العبارة تتردد أيضا في أذني

– وماذا يعني ذلك؟

– تساءلت كثيرا وحاولت أن أجد تفسيرا للأمر

– وهل وجدت التفسير؟

– فجأة تذكرت كل شيء .. لقد كانت تلك العبارة تتردد في أذني وأذن سيادتكم لسبب بسيط

– ما هو؟

– السبب أننا سمعنا تلك العبارة عشرات بل مئات المرات

– أين؟

– في التلفاز

ضرب العقيد الشيمي سطح مكتبه بإحدى راحتيه بينما يقول في غضب:

– هل جننت يا رجل؟ .. أهذا وقت للمزاح؟

– ارجوك يا سيادة العقيد .. انني لا أمزح .. إنني أرجو سعة الصدر من سيادتكم

تنهد العقيد الشيمي قبل أن يقول:

– تكلم يا رجل!

– أتذكر ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده الدكتور الربيعي؟

بدا عليه الحيرة بينما يقول:

– الدكتور الربيعي .. الدكتور الربيعي .. من هو الدكتور الربيعي؟

– ألا تذكر ذلك الرجل الذي ابتكر مادة رمادية شبيهة بالوقود وأقام الدنيا وأقعدها قبل أن ينتحر؟

– نعم نعم .. لقد تذكرته

– لقد كان الرجل يقول أن تلك المادة كلما كانت مركزة كلما زادت من سرعة المركبات حتى أنه يمكننا استخدامها كوقود للصواريخ .. لقد كان يكرر أنها ستجعل السيارات تسير بأكثر من ضعف سرعتها وكانت وسائل الإعلام تعيد أحداث المؤتمر كل ساعتين ولم نكن نمل من مشاهدته وهذا هو السبب في أن تلك العبارة كانت تتردد في أذني كلينا

– هل تعني .. ؟

– لقد تمكن اللصوص بوسيلة ما من الحصول على ذلك الوقود

– ولكن الرجل دفن ودفن سره معه فكيف بعث وقوده من جديد؟

– لقد كان لديه معيد يعمل معه ويساعده – ولست أذكر اسمه – يدعي أن تلك المادة من ابتكاره

– أتعني ذلك المجنون الذي حاول قتله؟ و ..

– بالضبط يا سيادة العقيد

– وبما يمكن أن يفيدنا ذلك المجنون؟

– أليس من المحتمل أن يكون قد احتفظ بكمية من الوقود الذي ابتكره أستاذه واستعمله في الهرب بعد أن قام بسرقة البنك مع شركاؤه

نهض العقيد الشيمي عن مقعده فنهض الرائد كمال بدوره فصافحه الأول بشدة بينما يقول في حماس:

– رائع أيها الرائد .. رائع .. رائع بحق

* * *

خرج بهاء أخيرا من السجن بعد أن قضى به خمس سنوات من العذاب والألم واجه خلالها البغضة والكراهية في كل العيون حتى كره نفسه وكره الوقود الذي ابتكره وحسم أمره في قرارة نفسه بأن ينسى الأمر تماما .. ينسى الماضي بكل آلامه ومآسيه .. لابد وأن ينظر صوب مستقبله .. لابد وأن يبحث عن وظيفة .. ولكن أي شركة وأي وظيفة ستقبله؟ .. لقد صار من أرباب السوابق؟.. لقد صار مجرما أمام الجميع .. ولكن ألا يكفيه أن الله يرى ويعلم ما في القلوب؟ .. ولكن كيف سيعيش؟ .. هز رأسه فجأة وكأنما ينفض الفكرة عن رأسه تماما .. ألا يرزقه من يرزق الدودة في الحجر؟ .. كيف ينساه خالقه؟ ..

– استاذ بهاء؟

أفاق من شروده وحملق في عيني محدثه في دهشة قائلا:

– هل تعرفني؟

– أبدا

– كيف عرفت أسمي إذن؟

– رشدي بيك السيوفي يريد مقابلتك

– وهل تعرف رشدي السيوفي؟

– إنني أعمل لديه

– أين هو؟

أشار إلى سيارة فارهة إلى جانبه ثم فتح بابها الخلفي بينما يقول:

– تفضل يا أستاذ بهاء .. لقد أمرني أن أقلك إليه

تردد بهاء قليلا ثم ما لبث أن حسم أمره وصعد إلى السيارة بينما يغمغم:

– حسنا سآتي معك فلم يعد من يسأل عني أو ينتظرني

أغلق الرجل باب السيارة الخلفي ثم احتل مقعد القيادة وانطلق بها على الفور

مر وقت طويل قبل أن يتسلل القلق إلى قلب بهاء وخاصة بعد أن خرجت السيارة عن حدود القاهرة وسارت في طريق صحراوي معبد و ..

– إلى أين يا رجل؟

– ألا تريد مقابلة رشدي بيك؟

– ولكنك خرجت عن حدود القاهرة

– رشدي بيك في الغردقة

– الغردقة؟ .. لماذا لم تخبرني و..

– لقد أمرني رشدي بيك بألا أخبرك خشية ألا تأتي

– ولكنني متعب للغاية و..

– يمكنك أن تستريح في السيارة حتى نصل

– حسنا .. سأفعل

وأغمض بهاء عينيه وسرعان ما استسلم لنوم عميق بينما تواصل السيارة طريقها وتنهب الأرض ..

نهبا

* * *

اندفع النقيب سالم يقتحم حجرة المقدم شريف زيدان دون استئذان ولكنه سرعان ما لاحظ خطأ ما فعل و ..

– آسف يا سيد شريف لقد أخذني الحماس

رفع المقدم شريف رأسه عن مجموعة من الملفات أمامه كان يطالعها وقال في هدوء:

– لا عليك يا رجل

وأشار نحو مقعد أمام مكتبه بينما يقول:

– تفضل بالجلوس

جلس النقيب سالم بينما يقول:

– لدي مفاجأة ستسعدك

– ماذا لديك يا رجل؟

– لقد سطا مجموعة من اللصوص على بنك بالمعادي و ..

قاطعه قائلا في استنكار:

– أهذا ما سيسعدني؟ .. أتمزح يا رجل؟

– اهدأ يا سيد شريف

اعتدل في مقعده بينما يقول:

– ها قد هدأت

تنحنح النقيب سالم قبل أن يقول:

– عندما طاردت الشرطة اللصوص كانت سيارة اللصوص تسير بضعف سرعة سيارة الشرطة

– وبعد؟

– ألا يذكرك ذلك بشيء ما؟

– يذكرني بفيلم هابط شاهدته في إحدى دور السنيما و..

ابتسم النقيب سالم ابتسامة واسعة قبل أن يقاطعه قائلا:

– ألا تذكر الدكتور مصطفى الربيعي و ..

قاطعة قائلا في لهفة:

– هل تقصد ..؟

– بالضبط

نهض المقدم شريف عن مكتبه واقترب من النقيب سالم الذي نهض بدوره واقفا بينما يقول:

– إذن فقد ظهر ذلك الوقود

– بالضبط

– ولكن كيف عرفت بأمر ذلك السطو؟

– إنه الخبر الرئيسي في كل جرائد الغد وكما تعلم إنني من هواة الطبعة الأولى و..

ظهر الفزع على وجه المقدم شريف بينما يقول:

– لابد من مصادرة كل الصحف

اتسعت عينا النقيب سالم بينما يقول:

– مستحيل

– لماذا؟

– هل نصادر كل الصحف دفعة واحدة؟

– ألا تذكر ما حدث منذ سنوات حين أعلن الدكتور الربيعي عن ابتكاره؟

– نعم ولكن ..

– أما تذكر كم من مخابرات الدول أرسلوا عملاءهم إلينا؟

– أذكر ولكن مصادرة كل الصحف دفعة واحدة سيلفت الإنتباه إلينا و ..

– وماذا أيضا؟

– لا تنسى أننا حين نصادر الصحف ستتسرب بعض الأعداد و ..

– إذن فلنصادر الطبعة الأولى ونرسل حظرا بالنشر في هذا الموضوع لجميع الجرائد

– حسنا سأرسل حظر النشر فورا

– لا .. فلتستصدر حظر النشر من النائب العام حتى لا نثير الإهتمام وحتى لا يعلم أحد أن لنا يدا في هذا الموضوع

– ولكن حظر النشر سيثير الكثير من التساؤلات لماذا لا نرسل رجالنا بشكل ودي ونطلب منهم أن يمحوا أي إشارة للسرعة المضاعفة و ..

– وبذا نعرفهم بالضبط مم نخشى؟ .. إليك عني يا رجل

* * *

"خطأ يا سيادة الرائد .. خطأ جسيم"

نطق مأمور السجن بتلك العبارة في وجه الرائد كمال فؤاد في عنف فاحتقن وجه الأخير بينما استطرد الأول قائلا:

– كل استنتاجاتك خاطئة يا رجل

هتف به الرائد كمال قائلا في حنق:

– لماذا يا سيادة المأمور؟

– السبب بسيط للغاية .. متى حدث السطو بالضبط؟

– وما علاقة ذلك بالموضوع؟

– أجبني أرجوك

– لقد حدث السطو منذ أسبوع

– الرجل الذي تسأل عنه لم يخرج من السجن سوى بالأمس

اذداد احتقان وجه الرائد كمال لبرهة ولكنه ما لبث أن استعاد جأشه ونظر إلى عيني المأمور بينما يقول:

– ألا يحتمل أن يكون شريكا للصوص يا سيادة المأمور

تردد المأمور للحظات إلا أنه أومأ برأسه موافقا بينما يقول:

– إنه احتمال وارد بالفعل

واطرق قليلا نحو الأرض وحك ذقنه بأحد أظافره قبل أن يقول:

– كم كان عدد اللصوص يا سيادة الرائد؟

– لقد كانوا سته

– ولكن بهاء شكري لم يكن أحدهم بالتأكيد

– ربما أمدهم بالوقود و ..

– وماذا؟

– ألم يذكر شيئا عن ذلك الوقود أمامك؟

– بل لقد سلمني قطارة صغيرة بها سائل رمادي داكن ذات مرة و ..

قال في لهفة؟

– وأين هي؟

– ألقيت بها من النافذة

فغر فاه في دهشة قائلا:

– ولكن .. لماذا؟

– لأنه كان يدعي أنها من اختراعه .. لقد أراد تشويه البطل

– أما كان ينبغي أن تسمع له؟

– لو سمعت لكل سجين لذهب عقلي منذ زمن

نهض الرائد كمال عن مقعده وصافح المأمور الذي نهض بدوره بينما يقول الأول:

– سؤال أخير يا سيادة المأمور:

– تفضل!

– من من السجناء كان قريبا منه؟

– كل السجناء كانوا يكرهونه ويريدون تقطيعه إربا

– لماذا؟

– لأنه الخائن الأعظم .. لقد خان البطل .. لقد خان مصر كلها .. لقد حاول قتل الدكتور الربيعي

– هل يمكنني رؤية صورة له؟

فتح المأمور ملف بهاء الذي كان قد طلبه منذ بداية المقابله وكان موضوعا على مكتبه وأخرج منه صورة لبهاء مرتديا سترة السجن الزرقاء وسلمها للرائد كمال الذي تفحصها بإهتمام وكأنما يحفظ ملامح بهاء ثم أعادها للمأمور و..

– شكرا سيادة المأمور

وهم الرائد كمال بالإنصراف لولا أن المأمور هتف به قائلا:

– انتظر .. لقد تذكرت

التفت بهاء نحوه بإهتمام دون أن ينبس ببنت شفة فاستطرد المأمور قائلا:

– هناك شخص واحد كان يحبه ويحميه من بطش السجناء

قال في اهتمام واضح :

– من هو؟

– زميله في الزنزانة ويدعى رشدي السويفي

– وماذا كانت تهمة السويفي هذا؟

– سطو مسلح

برقت عينا الرائد كمال في قوة فقد كان ذلك يعني أنه على الطريق .. على الطريق الصحيح

* * *

" ولكن من يمكنه الحصول على تلك المادة بعد انتحار الدكتور الربيعي؟"

وجه النقيب سالم سرحان السؤال إلى المقدم شريف زيدان بينما ترتسم الحيرة في عينيه واضحة جلية ودهش عندما أجابه المقدم شريف زيدان في بساطة قائلا:

– ليس سوى مساعده

– هل تقصد ..؟

– بالضبط .. هو بهاء شكري

– ذلك المجنون الذي حاول قتله؟

– بالضبط

– هل تذكر اسمه حتى الآن؟ .. لقد مرت سنوات خمس و ..

– بالطبع لا أذكره .. لقد قابلت مأمور السجن وسألته فذكرني به

– وهل وصلت إلى جديد

– بالطبع .. هل تدري أن الدكتور الربيعي زار بهاء في السجن مرتين قبل انتحاره؟

– ولماذا يزور الدكتور الربيعي رجلا حاول قتله؟

– الغريب أن بهاء حاول قتله ثانية في السجن

– يا له من خائن! .. لم كل هذا الإصرار على قتل الرجل؟

– لا تقل خائنا من فضلك

– لست أنا من يقول .. لقد لقبته الصحف بالخائن الأعظم وقامت المظاهرات وقت محاكمته في كل مكان تنادي بإعدامه و ..

تجاهل المقدم شريف كلامه بينما يقول:

– ليس للأمر سوى تفسير واحد

– ما هو؟

– التفسير المنطقي الوحيد الذي يفسر الأمر برمته هو أن الدكتور الربيعي ليس من ابتكر ذاك الوقود

اتسعت عينا النقيب سالم في دهشة بالغة بينما يقول:

– من إذن؟

– الموقف واضح للغاية .. لقد ابتكر بهاء شكري ذلك الوقود ولكن الدكتور الربيعي نسب الابتكار لنفسه لذا حاول بهاء قتله ولما فشل في المرة الأولى حاول في السجن ثانية

– ولكن هل من الطبيعي أن يزور الدكتور الربيعي رجلا حاول قتله؟

– يبدو أن مشكلات فنية قد واجهت الدكتور الربيعي جعلته يفشل في تصنيع ذاك الوقود فذهب إليه ليساومه و ..

قاطعه النقيب سالم قائلا:

ولما رفض بهاء المساومة وأحس الرجل بالفضيحة تحاصره انتحر .. تفسير منطقي للغاية ولكنه يظل مجرد افتراض

– لقد أخبرني المأمور أن بهاء ادعى ذلك بل وسلمه قطارة مليئة بسائل رمادي داكن ولكنه لم يصدقه وألقى بها من النافذة

– ولكن أليس من المحتمل أن يكون مدعيا بالفعل؟

– لذا يجب أن نتأكد

– ولكن كيف لنا أن نتأكد؟ .. كيف؟

* * *

" استاذ سالم عبد الهادي؟"

حملق سالم في وجه الرجل الذي يقف أمامه بالباب لحظات قبل أن يقول:

– نعم .. أنا

– أنا المقدم شريف زيدان

احتقن وجه الرجل في شدة وبدا الذعر على وجهه بينما يقول:

– ولكنني لم أفعل شيئا و ..

قاطعه المقدم شريف قائلا في صرامة:

– لا تضطرب يا رجل .. إنني هنا بصدد طرح مجموعة من الأسئلة على زوجتك السيدة سلوى

قال في قلق:

– ولكن .. زوجتي؟ .. لماذا زوجتي؟

– إهدأ يا رجل .. إنها مجرد مجموعة من الأسئلة بشأن زوجها السابق

أومأ برأسه متفهما دون أن ينبس ببنت شفة فبادره المقدم شريف قائلا:

– ألن تدعوني للدخول يا رجل؟

– أفسح سالم الطريق للمقدم شريف وبدا عليه الإرتباك الشديد بينما يشير بإحدى راحتيه نحو الداخل ويقول:

– تفضل يا سيادة المقدم! .. تفضل بالدخول!

وقاده سالم إلى غرفة الجلوس حيث اتخذ المقدم شريف له مجلسا على أريكة وثيرة واستأذن الرجل ليستدعي زوجته ولم يمضي الكثير من الوقت حتى عاد مصطحبا إياها وجلس إلى الأريكة المقابلة بينما جلست زوجته إلى جواره و ..

– هل تسمح يا أستاذ سالم أن تتركنا بمفردنا؟

بدا الحرج والتوتر على وجه الرجل ونهض من مجلسه بينما يتمتم قائلا:

– لقد كنت سأستأذنكم فقد تركت ابنتي نائمة في الحجرة بمفردها وقد تستيقظ فجأة فيصيبها الفزع

– تفضل .. تفضل يا استاذ سالم

غادر سالم الغرفة وما أن اختفى عن أنظارهم داخل إحدى الغرف حتى بادر المقدم شريف سلوى قائلا:

– سيدة سلوى! .. ألديك تفسيرا لمحاولة زوجك السابق بهاء شكري قتل الدكتور الربيعي أكثر من مرة؟

– الدكتور الربيعي وغد يستحق القتل؟

– لماذا؟

– لقد هدم حياتنا وشرد أسرتنا

– كيف؟

– لقد كانت رسالة الدكتوراه الخاصة ببهاء تتحدث عن ابتكاره لمادة رمادية داكنه تشبه البنزين في خواصه وتتفوق عليه في سرعة اشتعالها خاصة لو استخدمت مركزة وعندما سلمها للدكتور الربيعي أعجبته الفكرة فنسبها لنفسه

– ولماذا لم يقدم تلك الرساله كدليل لبرائته في المحكمة؟

– لقد قدمها ولكن النيابة دفعت بأن الرسالة ليست دليل على براءته من تهمة الشروع في قتل الدكتور الربيعي بل هي تدينه وتقدم الدافع الذي بسببه حاول قتل الدكتور وهذا بعد ان شكك الدكتور الربيعي في الرسالة أيضا واتهم بهاء بأنه سرق فكرته بعد أن إئتمنه عليها لأنه كان مساعده و..

– وأين هي تلك الرسالة؟

– لدي نسخة منها

ونهضت من مقعدها فجأة ونهض المقدم شريف لهفة وراحت تهرول نحو الحجرة الداخلية بينما تقول:

– سأحضرها لك فورا

ولم تغب كثيرا ولم تمضي دقيقة واحدة حتى عادت تحمل ملفا متخما بالأوراق بكلتا يديها وسلمتها للمقدم شريف الذي تألقت عيناه وكأنما عثر على كنز ثمين وجلسا كلاهما ثانية قبل أن يلتفت المقدم شريف إليها باهتمام قائلا:

– ولكن لماذا يزور الدكتور الربيعي شخصا حاول قتله مرتين؟

– لقد فشل الدكتور في تصنيع تلك المادة بعدما تعجل في الإعلان عنها

– ولماذا لم يستعن برسالة الدكتوراه و ..؟

– لقد نصحت بهاء بأن يحتفظ بأسرار وشروط التفاعل

أحس المقدم شريف بصدمة هائلة ورفع الملف أمامها بينما يقول:

– هذا يعني أن هذا الملف ليس ذا قيمة

وتنهد قليلا قبل أن يقول:

– هل تدري كم خسرت مصر من جراء نصيحتك تلك يا سيدتي؟

– وهل تدري كم كان سيخسر بهاء لو كتب أسرار وشروط التفاعل في رسالته؟

– نعم ولكن مصر ..

قاطعته قائلة:

– مصر لم تخسر شيئا .. لقد تأجل المشروع قليلا ولكنه عاد إلى صاحبه .. اخرجوا بهاء من سجنه بينما لن يضن على مصر ولو بحياته

– لقد خرج بالفعل يا سيدتي ..

اندفعت فتاه صغيرة فجأة نحو سلوى فقطعت حديثهما بينما تهتف:

– أمي .. أمي

واندفع سالم خلفها إلى الحجرة بينما يقول في حرج:

– عذرا سيادة المقدم .. لقد أفلتت مني الصغيرة

– لا بأس فلتدعها مع والدتها

انسحب سالم من الحجرة ثانية بينما التقطت سلوى الصغيرة وأجلستها على ركبتيها فمالت الطفلة نحوها تحتضنها في قوة و ..

– أتلك هي ابنتك؟

– بسمة

– كم عمرها؟

– أربع سنوات وعدة أشهر

– إذن فهي بسمة بهاء شكري

امتقع وجهها بينما تقول:

– كيف عرفت؟

– الأمر لا يحتاج للكثير من الذكاء

– أرجوك لا تخبر بهاء!

– لماذا؟

– لو علم أن له ابنه سيأخذها مني .. لقد أخبرته أنني قد أسقطت الجنين

– لماذا طلبتي الطلاق من بهاء يا سيدتي؟

ترقرقت الدموع في عينيها بينما تقول:

– العيون لم ترحمني .. كما اتهموه بالخيانة اتهموني معه .. كنت أسمع عبارة "زوجة الخائن" في كل مكان .. كانوا يرجمونني بعيونهم ونظراتهم تجلدني ووالدته رحمها الله كانت تتهمني دوما بأنني السبب وأنني كنت شؤما عليه .. أصابني اكتئاب شديد .. ومكثت لدى منزل والدي ولكن أبي لم يرحمني لقد حول حياتي جحيما وأصر على رفع دعوى طلاق فلابد أن أنفصل عن الخائن وحاولت إقناعه أن بهاء بريء دون جدوى .. وزاره في السجن وطلب منه أن يطلقني وأفهمه أن تلك كانت رغبتي وأنني قد أسقطت الجنين عمدا حتى لا يربطني به أي شيء فهو خائن وعار على كل من حوله وطلقني بهاء فأصبت بصدمة عصبية رهيبه وكذا أصابني الذهول لفترة طويلة وما أن أفقت من ذهولي حتى فوجئت بسالم يخطبني ووافق أبي وأرغمني و ..

– آسف للتدخل في حياتك الشخصية .. ولكن لدي سؤال أخير سيدتي

– تفضل

– من المفترض أنك وبهاء قد كنتم زملاء في كلية العلوم وعلى حد علمي فقد كنتي متفوقة

– نعم

– ألم يطلعك بهاء على أسرار التفاعل أو تكويني قد سألتيه عنها بدافع الفضول و ..

– لقد طلبت منه ألا يفعل

– لماذا؟

– السر لو خرج عن صاحبه لم يعد سرا .. لم يعد سرا بالمرة

* * *

ألقى بهاء نفسه في حضن رشدي السيوفي الذي كان يرتدي بدلة أنيقة ويقف في ردهة الفندق الذي يحمل نجوم خمس في الغردقة بينما هتف الأخير قائلا:

– لكم افتقدتك يا صديقي!

وربت السويفي على أحد كتفيه بينما يستطرد:

– حمدا لله على سلامتك يا رجل

ثم جذبه نحو أريكة وثيرة في ردهة الفندق وأجلسه ثم استدعى النادل حيث طلب منه قدحين من القهوة راحا يحتسيانها في تلذذ و ..

– لقد حجزت لك الجناح المجاور في الفندق

اتسعت عينا بهاء دهشة بينما يقول:

– جناح بأكمله؟

– إنه لا يليق بك يا صديقي

– ولكنك لم تخبرني بأنك ميسور الحال من قبل

– لقد يسر الله أمري على يديك يا صديقي فالفضل لك

– لي أنا؟

– من بعد الله سبحانه وتعالى

– كيف؟

– لقد وصلت للتو ويبدو عليك التعب سأخبرك كل شيء بعد أن تسترح قليلا يا صديقي

نهض كلاهما بينما يقول بهاء:

– إنني منهك بالفعل يا صديقي .. لقد خرجت للتو من السجن و ..

قاطعه السويفي بصوت خافت أقرب إلى الهمس قائلا:

– أرجوك اخفض صوتك يا رجل ولاتذكر السجن هنا .. أرجوك

أومأ بهاء برأسه متفهما بينما يقول :

– حسنا .. حسنا يا صديقي

أوصله السويفي إلى الجناح الخاص به وتركه على وعد باللقاء في اليوم التالي فأخذ بهاء حماما ساخنا منعشا ثم استرخى على سريره واستسلم للنوم ولم يستيقظ سوى ظهر اليوم التالي وما كان ليستيقظ لولا طرقات رشدي السويفي القوية على باب جناحه فنهض يفتح الباب .. دلف السويفي إلى الداخل بينما يحمل حقيبة بيمناه و يقول ساخرا:

– لولا أنني طرقت بابك لظللت نائما للغد

لاحت ابتسامة باهتة على شفتي بهاء بينما يقول:

– يبدو أنني أريد تعويض تعب سنوات في يوم واحد

جلسا كلاهما على أريكة وثيرة في ردهة الجناح بينما فتح السويفي الحقيبة وقربها نحو بهاء الذي فوجيء بها مليئة بالدولارات ففغر فاه بينما يقول:

– ما هذا بالضبط؟

– حقك يا صديقي .. أما وعدتك أن أستعيد إليك حقك كاملا؟

– وقرب الحقيبة أكثر وأكثر من بهاء بينما يقول:

– وها أنا الآن أوفي بوعدي

قال بهاء في حيرة:

– ولكن كيف؟

– خذ نقودك أولا يا رجل

– أبعد بهاء يدالرجل الممسكة بالنقود بينما يقول:

– ليس قبل أن أفهم

وضع السيوفي الحقيبة فوق منضدة صغيرة أمامه بينما يقول:

– حسنا سأشرح لك الأمر أولا .. هل تذكر قطارة الوقود التي أهديتني إياها بينما كنا في السجن؟

– نعم

– لقد استثمرتها وكسبت من ورائها الملايين

– وأشار إلى الحقيبة الممتلئة بالنقود بينما يستطرد :

– وهذا حقك بما يرضي الله

بدت الحيرة على وجه بهاء بينما يقول:

– ولكن .. كيف استثمرتها؟

خفض السويفي صوته حتى صار أقرب إلى الهمس بينما يقول:

– لقد سطوت ورجالي على أحد البنوك و..

اتسعت عينا بهاء ذعرا بينما يقاطعه قائلا:

– وما شأني أنا بالسطو على البنك؟

– لولا وقودك الرائع لما أمكننا الإفلات من الشرطة .. إنني مدين لك بكل ما أنا فيه من نعمة

أحس بهاء بغصة في حلقه تمنعه من الكلام فلاذ بالصمت وإن بدا الذهول جليا على وجهه فاستأنف السيوفي حديثه بينما يشير إلى الحقيبة قائلا:

– تلك الحقيبة تحوي مليونا من الدولارات ولك مثلها حين تسلمني الأمانة

– أي أمانة تلك؟

– قطارة مليئة بالوقود كالسابقة

انفجر بهاء في وجهه قائلا:

– هل جننت يا رجل؟

احتقن وجه السويفي بينما يقول في ذهول:

– جننت لأنني أنصفتك وأعدت إليك حقك؟

– هذا ليس حقي .. إنه حق الشعب الفقير

– أشاح بوجهه بينما يقول:

– دعك من حق الشعب الفقير وابحث عن حقك يا رجل .. الشعب لم يذق مرارة السجن وذله كما ذقنا

– لقد صنعت ذلك الوقود لخدمة البشرية لا للنهب والسرقة

– لا تقل سرقة! إنه حقنا .. حقنا أن نعيش بكرامة و ..

– تبا لك يا رجل .. خذ أموالك القذرة تلك بعيدا عني

– وإن أخذتها فكيف ستعيش يا رجل؟

– سأجد وظيفة محترمة و ..

قاطعه قائلا في سخرية:

– وظيفة؟ ومحترمة؟ .. وكيف ستحصل على تلك الوظيفة وصحيفة سوابقك ملطخة بالعار يا فتى؟

خفتت حدة لهجة بهاء بينما يقول:

– خذ نقودك وارحل عني يا رجل

– فكر بترو يا صديقي .. سأترك لك النقود حتى الغد وإن ظللت على رأيك فسآخذ النقود ولن تراني ثانية ولكن نصيحة لا تتسرع يا صديقي فتلك فرصتك الأخيرة لتحيا كآدمي

وضغط مقاطع حروف كلماته بينما يستطرد:

– تلك فرصتك الأخيرة .. فلا تتسرع يا صديقي

* * *

اقتحم الرائد كمال فؤاد حجرة مكتب العقيد خالد الشيمي بينما يقول في حماس:

– لقد وصلنا إليه يا سيادة العقيد

نهض العقيد الشيمي عن مكتبه بينما يقول:

– من تقصد يا رجل؟

– بهاء شكري .. لقد عرفنا مكانه

قال بلهفة واضحة:

– أين هو؟

– في أحد فنادق الغردقة

– وماذا عن شركائه؟

– رشدي السويفي يقيم في جناح مجاور له في نفس الفندق يا سيادة العقيد

– جناح بأكمله؟

– كلا منهما يقيم في جناح فاخر بمفرده يا سيادة العقيد

– إذن فالأمر واضح وليس هناك من شك

– بالطبع يا سيادة العقيد

– ولكنك قلت أن بهاء كان ما يزال في السجن يوم ارتكاب الجريمة و ..

– لقد شارك بالوقود الذي سرقه من أستاذه الربيعي يا سيادة العقيد

– وماذا عن الخمسة الباقين؟

– لقد أثبتت التحريات أنهم رجال السويفي

– وهل حددتم مواقعهم؟

– بالضبط يا سيادة العقيد

– ولماذا لم تقبضوا عليهم حتى الآن؟

– رأس الأفعى أولا يا سيادة العقيد .. فلو قبضنا عليهم سيشعر السويفي بالخطر ويهرب وقد لا نعثر عليه ثانية

– ولكنهم أيضا سيهربون بمجرد القبض على السويفي

– لقد رتبت مع زملائي وسنداهم الجميع في ذات الوقت وسأسافر للغردقة لأقبض على السويفي وبهاء شكري بنفسي

– وهل استصدرت إذنا من النيابة؟

– بالطبع يا سيادة العقيد

– لابد أن يكون كل شيء قنونيا .. لن أسمح لمحام تافه بنسف القضية بسبب خطإ في الإجراءات

– اطمئن يا سيادة العقيد

– ماذا تنتظر يا رجل؟

– أنتظر أوامرك يا سيادة العقيد

– على بركة الله يا رجل .. على بركة الله

* * *

حملق الرئيس في وجه المقدم شريف زيدان في دهشة بالغة بينما يهتف ذاهلا:

– ماذا تقول يا رجل؟

– تلك هي الحقيقة يا سيادة الرئيس

– ولكن ذلك مستحيل

– لقد تأكدت بنفسي

– لا تحيي الأمل بداخلي من جديد يا رجل! .. ستكون الصدمة قوية تلك المرة لو ثبت العكس و ..

مد يده نحو الرئيس بالملف الذي يحوي رسالة الدكتوراه الخاصة ببهاء بينما يقول:

– ها هي رسالة الدكتوراه خاصته .. لقد حصلنا عليها

بدا أن الرئيس لا يصدق عينيه بينما يتفحص الرسالة ورقص قلبه فرحا وتألقت عيناه بشدة ثم وضع الملف أمامه على المكتب بينما يقول:

– إذن فالحلم كان أمامنا طوال الوقت بينما كنا نطارد سرابا

– بالضبط يا سيادة الرئيس

– لا أدري لماذا يحدث لنا كل ذلك

– رب ضارة نافعة يا سيادة الرئيس

– ماذا تقصد؟

– ما حدث شتت عنا كل مخابرات الدول ويمكننا الآن أن نعمل في هدوء ونفاجيء العالم

– وأين بهاء الآن؟

– تحرياتنا تقول أنه في الغردقة يا سيادة الرئيس

– وماذا يفعل هناك؟

– الشرطة تشتبه في أنه شريك في حادث السطو على ذلك البنك في المعادي رغم أنه كان سجينا آنذاك

ضرب سطح مكتبه بإحدى راحتيه في عنف بينما يهتف صارخا:

– أغبياء!

وأمسك بسماعة الهاتف بينما يستطرد:

– سأتصل بوزير الداخليه ليبعد رجاله عنا

– لا فائدة من ذلك يا سيادة الرئيس

قال في دهشة:

– لم؟

– لأن الاتصالات كلها مقطوعة بالغردقة بسبب الطقس السيئ

أمسك ورقة وخط عليها بعض الكلمات سريعا وذيلها بتوقيعه ومد يده بها نحو المقدم شريف بينما يقول:

– إليك هذا القرار ولتنجده من أيديهم يا رجل

مد المقدم شريف زيدان يده يتسلم الورقة من الرئيس بينما يقول:

– ما هذا يا سيادة الرئيس

– إنه قرار جمهوري

– قرار جمهوري؟

– قرار بالحفاظ على حياة الرجل وبأي ثمن .. فلتسافر على الفور يا رجل لابد وأن تنقذه من أيدي هؤلاء الأغبياء

– كما تأمر يا سيادة الرئيس

– مستقبل مصر كلها يتوقف على هذا الرجل يا سيد شريف

– أعلم تماما يا سيادة الرئيس

– إنه أملنا الوحيد لذا فلتسرع قدر استطاعتك ولتبذل قصارى جهدك يا رجل

– علم وينفذ يا سيادة الرئيس

وأدى التحية العسكرية وانطلق الرجل يسابق الريح بل يسابق الزمن لإنقاذ بهاء .. بهاء شكري .. الأمل

* * *

مد بهاء يده بالحقيبة الممتلئة بالنقود نحو السويفي بينما كانا يقفان في ردهة الفندق و ..

– هل ستتخلى عني يا صديقي؟

قال بهاء في أسى:

– آسف يا صديقي .. لقد اختبرت معدتي مرارا فلم تهضم الحرام

أزاح السويفي يد بهاء الممسكة بحقيبة النقود نحوه بينما يقول:

– إذن فلتعتبر تلك النقود هدية وداع مني يا صديقي

– مستحيل

– لم؟

– لأنني أعرف مصدرها جيدا .. سامحني يا صديقي

– ولكنني أتحمل وزرها و ..

– لن أتخلى عن مبادئي فلم يعد لي سواها

مد السويفي يده يلتقط الحقيبة من بهاء و ..

"ارفعوا أيديكم المكان محاصر .. لا فائدة من الهرب"

هتف الرائد كمال فؤاد بتلك العبارة بينما يصوب مسدسه نحوهم وبدا الذهول في عيني بهاء بينما يحملق بالرائد كمال والجنود الذين يحيطونه وصديقه من كل اتجاه بينما اسقط السويفي حقيبة النقود والتقط مسدسه بسرعة بالغة من جيب سترته وأطلق النار واشتعل الموقف فجأة وتحول المكان إلى جحيم وتطايرت قنابل الدخان في كل صوب واتجاه وانطلق منها الدخان يعمي الأبصار ورصاصات المدافع الآليه للشرطة تتطاير في كل مكان وساد الهرج والمرج وتدافع رواد الفندق مبتعدين وتعالت صرخات الهلع هنا وهناك و ..

"أوقفوا إطلاق النار"

صرخ المقدم شريف زيدان بتلك العبارة بكل ما يملك من قوة فتوقف إطلاق النار فجأة كما بدأ فجأة واندفع الرائد كمال فؤاد نحو المقدم شريف ينتهره بشدة:

– من أنت يا رجل؟ ومن أعطاك الحق في إصدار الأوامر؟

سلمه المقدم شريف زيدان القرار الجمهوري دون أن ينبس بكلمة واندفع يركض نحو بهاء متجاهلا رشدي السيوفي الذي تحول جسده إلى مصفاه من جراء ما اخترقه من رصاصات الشرطة فأردته قتيلا في الحال .. كان بهاء أيضا ينزف بشدة مما جعل المقدم شريف يلتفت نحو رجال الشرطة ويهتف في هلع صارخا بينما ينحني على ركبتيه نحو بهاء ويجذبه نحوة برفق:

– الإسعاف .. استدعوا رجال الإسعاف فورا

ثم التفت نحو بهاء الغارق في دمه قائلا:

– أنا المقدم شريف زيدان باسم المخابرات العامة وباسم رئاسة الجمهورية أقدم لك اعتذارا رسميا يا رجل

– نظر بهاء بصعوبه إليه ولم ينبس بكلمة واحدة بينما يبتسم فاستطرد المقدم شريف قائلا:

– لقد أخبرت الرئيس بقصتك كاملة فأرسلني لأنجدك وأنصفك يا رجل ولقد أصدر قرارا جمهوريا بالحفاظ على حياتك بأي ثمن

وترقرقت الدموع في عينيه بينما يقول في أسى:

– ولكن يبدو أنني قد وصلت متأخرا .. سامحني يا صديقي .. سامحني

(تمت بحمد الله)